رحاب

معهد البحوث والدراسات الإفريقية
قســم التاريــخ
جامعة القاهرة

نـــــدوة

المجتمعات الإفريقية تطورها التاريخى ودورها الحضارى حتى مطلع القرن الحادي والعشرين

الأربعاء والخميس ١٨ - ١٩ مايو ٢٠٠٥م

عنوان البحث : البيت والعائلة السنغائية زمن أسرة الأسكيين
٨٩٩ - ١٠٠٠هـ / ١٤٩٣ - ١٥٩١م

إعداد : د / كرم الصاوى باز
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى والوسيط
بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية

القاهرة ٢٠٠٥م

المقدمـــة :

تميز مجتمع سنغاى زمن أسرة الأسكيين ٨٩٩-١٠٠٠هـ/١٤٩٣-١٥٩١م بحرصه على تماسك الروابط الأسرية سواء فى مجتمع المدينة أو القرية ؛ إذ كانت الأسـرة هــى العنصر الأساسى الذى ترك طابعه على كل المؤسسات الاجتماعية وعلــى الحــياة اليومــية ، فقد ضمت العشائر أسراً متعددة والتى تعود أقدمها إلى أصول سوننكية من (تورى ، سيلا ، تونكارا ، سيسى ، دياكيتا ، درامى ، دياوارا) والقلــيل مــنها مــن أصول السنغاى (المايجا) ، وهنا تطرح هذه الورقة المشكلة الخاصـــة بالتركيبة الاجتماعية لشعب السنغاى الذى أختلط اختلاطاً قوياً بأقوام من السوننكى والبربر وبجنسيات أخرى مثل الماندنجو والجبرى والهوسا.

أمـــا مـــا يــتعلق بالتنظــيم الاجتماعى السنغائى طبقا للمصادر الإسلامية والمصادر المحلية والتاريخ الشفاهى فقد رصدت الطبقات الاجتماعية زمن الأسرة السنغائية من القصر الملكى ورجال الجيش والحكم من الأمراء ؛ ثم الفقهاء والعلماء وهى الطبقة المتوسطة التى امتزجت بدماء جديدة من العناصر المغربية فكان التغير الاجــتماعى والــتطور الفكــرى والثقافى قد شمل منطقة السودان الغربى حتى إذا وصــلنا إلــى طــبقة الرقــيق ، وهــى التى عملت فى زراعة الحقول والحرف والصــناعات التى أسهمت فى ارتقاء العرش السنغائى ، ومدته بما يحتاج إليه من الفنون التى زخر بها البلاط السنغائى فنحن أمام مجتمع تم تنظيمه فى طبقات بداية مــن العــرش الذى زخر بطبقة النبلاء ثم طبقة الأحرار ثم طوائف العمال وأخيراً الرقيق والعبيد .

وتـــبرز أهمية هذه الدراسة لدى العائلة السنغائية التى تقوم على الانتساب لـــلأم ممـــا أنعكس هذا الأمر على الصعيد السياسى فى أن خلافة العرش كانت تتم علـــى أســـاس الانتســـاب إلى الأم ، وهو ما أورده البكرى عند إشارته إلى أعلى المناصب السياسية (الفاران).

ومـــن خصـــائص هـــذه الدراســـة لدى العائلة السنغائية هو حفاظها على المعتقدات الدينية من الديانات التقليدية القديمة حتى فى ظل الإسلام.

وسوف تبرز أهمية التأثيرات المتبادلة وخاصة فى الطراز المعمارى لبناء المنازل ، والأثاث ، وخاصة فى مدينة تنبكت وجنى وجاو وأقدز ، وعلى الأخص التأثيرات المغربية.

كما تبرز هذه الورقة دراسة المنابع والأصول والموروث الاجتماعى المتنوع الأغراض والمقاصد فى فن الغناء والموسيقى ؛ وانتشار أسواق فن القصة الروائى والمضحك ، كما انتقلت الآلات الموسيقية المغربية مثل الغيطة وآلة الطبل فالأولى دخلت سنغاى والثانية انتقلت من السودان الغربى إلى بلاد المغرب.

كما تسهم هذه الورقة فى إبراز دور المرأة الأفريقية التى كانت على درجة عالية من المهارة فى فن الطبخ الذى وصل إلى درجة من الإتقان فى الشمال الإفريقى ، وبالتالى نقل المغاربة عاداتهم فى المأكل كإدخال وجبة العشاء إلى الأسرة السنغائية وترصد أهم ظاهرة اجتماعية فى عملية الإمتزاج والاختلاط بين السكان الأصليين فى سنغاى وسكان الشمال الأفريقى فى زيجات تتوالد على أثرها أنساب جديدة من المولدين. المغاربة أصحاب حضارة إسلامية رائعة عاشوا فى هذا الظهير من السودان الغربى وتفاعلوا مع العائلة السنغائية بعاداتهم وتقاليدهم ؛ فكان الاحتضان والانصهار؛ استحدثوا عادات جديدة تتماشى مع الإسلام وتطبيق الشريعة الإسلامية؛ من بينها تجميعهم لأبناء الفقراء وإقامة الاحتفالات لهم ؛ وختان الأطفال. وأخيراً أبرز هذا البحث أن الفطرة الإفريقية السليمة قامت بدور عظيم فى صياغة أحداث التحول العظيم نحو قبول دعوة التوحيد ، مما نتج عنه نمط جديد جمع بين القيم الإنسانية الأفريقية الراشدة وثقافات أبناء هذه المنطقة وحضارتهم الناضجة ، وبين النبع الثقافى والحضارى الإسلامى الصافى الذى ترك بصماته الواضحة على كل نواحى الحياة لدى أهالى السودان الغربى من مسلمين وغير مسلمين على حد سواء، وظهر ذلك واضحاً فى تقدير الناس للقيم الدينية وفى تشبع الحياة العامة بالمعانى وبالقيم الدينية السامية. وقد قسمت نقاط الدراسة فى المباحث التالية :

تميهد : التنظيم الاجتماعى فى السودان الغربى قبيل عهد الاسكيين (قبائل الماندنجو).

أولاً : البنـــاء الاجـــتماعى السنغائى زمن أسرة الأسكيين (الريف – المدينة والمجتمع الحضرى).

ثانياً : العادات والتقاليد للعائلة السنغائية (الملبس – المأكل – المشرب – الزى والزينة – الأعياد والاحتفالات – الطقوس – الموسيقى والغناء).

ثالثاً : المـــرأة ودورها الاجتماعى فى العائلة السنغائية (الأنساب – الزواج – الأسرة – تعليم الأبناء).

رابعاً : البيت السودانى السنغائى (بنائه وتأثيثه)

- الطرز المعمارية
- التأثيرات المتبادلة
- الزخارف
- الأثاث.

الخاتمة

والله ولى التوفيـــــق ،،،

د / كرم الصاوى باز

التمهيد

التنظيم الاجتماعى فى السودان الغربى قبيل عهد الأسكيين (قبائل الماندنجو[١])

كان من الحقائق الثابتة فى فكر المؤرخين الأوربيين أن إفريقية الاستوائية لم تقم فيها حضارة ؛ ذلك أن نظام الدولة فى السودان الغربى لم يكن حتى منتصف القرن التاسع عشر معروفاً للدارسين الأوربيين إلا من خلال الجغرافيين العرب مثل البكرى[٢] أو الإدريسى[٣] ؛ أو من خلال المؤرخين العرب مثل ابن خلدون[٤] والمقريزى[٥].

وقد كشفت زيارة بارث لإفريقية الغربية عن وجود كتابات باللغة العربية عن غرب أفريقية[٦] مثل كتابى السعدى[٧] ومحمود كعت[٨] ؛ وكذلك كتابات عثمان دان فوديو وبلو وعمر[٩].

ومع ذلك فإنه حتى بعد اكتشاف فن بنين وإيفه[١٠] رفض الدارسون الأوربيون التسليم بوجود طابع مستقل بذاته لثقافة السودان الغربى[١١].

ووجهة النظر القائلة بأن ثقافة غرب إفريقية لم تكن ثقافة وطنية ؛ وإنما ثقافة مستوردة تحللت مع الوقت ؛ وجدت دعماً فى الأفكار التى يؤمن بها الإفريقيون عن ماضيهم. فليست هناك قبيلة واحدة من قبائل غرب أفريقية الرئيسية تزعم أنها من سكان المنطقة الأصليين ، فجميعها تزعم أنها هاجرت إما من المشرق أو من الشمال[١٢]. وغالبية هذه القبائل تزعم أنها إما من أصل بربرى أو مصرى أو آسيوى[١٣]. وهذا التطابق بين وجهتى النظر الأوربية والإفريقية أعطى دعماً إضافياً للنظرية القائلة بأن الحضارات التى جاءت مع المهاجرين قد تعرضت للتدهور[١٤].

ومن الغريب أن هؤلاء المهاجرين لم يجلبوا معهم لا أبجدياتهم ولا معداتهم مثل العجلة. وذلك لأن معظم الناس يسلمون بأن الأفريقى قد أخفق حتى العصور الحديثة فى وضع أبجدية. وبأن الافتقار إلى العجلة قد اتخذ تفسيراً لعدم تطوير نظام سليم للنقل والزراعة[١٥].

إن العجلة والأبجدية اللتين تشكلان الأساس لأية حضارة – فالأولى لتنمية الموارد المادية ، والثانية لتطوير قيمها الثقافية والروحية ؛ واللتين كان يمكن أن

يحققهما التدوين وإمعان التفكير باستمرار فيهما[١٦]. لم يتم استحداثهما فى السودان الغربى[١٧] ؛ فإذا لم يكن المهاجرون يعرفونهما فمن المستبعد أنهم كانوا أفضل حالاً مــن الســكان المحليين[١٨]. كما أن السودان الغربى لم يقدم حتى الآن سوى النزر اليسير سواء من المعونات أو من الأثار القديمة[١٩] ؛ على حين أن مناخ المنطقة ، وكذلــك المــوارد التقلــيدية التى استخدمت فى البناء لا تحملنا على أن نتوقع من الحفائــر القادمــة ما يساعدنا على حل هذا الغموض ، ومع ذلك فإن ما نعرفه عن الســودان الغــربى له من الأهمية ما يكفى لأن نخلص إلى بعض الاستنتاجات عن طبيعة النظم الاجتماعية[٢٠].

يجــدر بنا أن نضع نصب أعيننا حقيقة أن حضارة السودان الغربى هى من الناحــية الجوهــرية حضــارة عصــور وسطى. لذلك ينبغى ألا تقارن بالحضارة الصــناعية الراهــنة وإنمــا بالحضــارة التى عرفتها أوربا قبل الثورة الصناعية. والتنظــيم الاجــتماعى فــى السودان الغربى لا يختلف من الناحية المادية عن أى مجــتمع آخر من مجتمعات الرقيق أو الأقنان[٢١]. فعلى رأس المجتمع يوجد الحاكم الــذى كــان يعتبر فى أفريقية المسلمة أميراً للمؤمنين[٢٢]. وترتبط شخصية الملك ارتباطاً وثيقاً بالسحر[٢٣] ، ولم يكن يوقر كساحر وحاكم من أمثال سندياتا[٢٤] وسنّي على فقط[٢٥]، بل حتى حكام مسلمون مشهورون مثل إدريس ألوما[٢٦] وأسيكا الحاج محمد[٢٧]. وفى السودان الغربى أرتبطت الخصوبة والأمطار بالملك ، وكانت فترة الســبع سنوات هى القاعدة بين النوبي واليوروبا[٢٨] كذلك كان الحكام هم الرؤساء الروحيون للعشائر[٢٩]. فالملك عند الموسى على سبيل المثال هو الحارس الرئيسى لأيــك شــعبة المقدسة[٣٠]. وجرت عادته أن يستشير أسلافه بانتظام. وفى داهومى وبنين توفد رسل بانتظام إلى السماء لإطلاع الأسلاف على أحداث الأرض[٣١].

وللحكــام قدســيتهم وفقاً للمعتقدات التقليدية القديمة فعند الإيبو عقب موت الملــك ولمدة سبع سنوات يجرى المطالبون بالحكم خلالها بنبوءاتهم ، فإذا صدقت بنوءة أحدهم جلس على العرش ولكن عليه قبل أن يتوج أن يموت ميته احتفالية[٣٢]. فيعامل الملك المنتخب على أنه جثة ويدفن فى قبر قليل العمق ، وبعد أن يمر خلال احتفالات تطهر مختلفة يظهر كائن مقدس[٣٣].

كسحرة وحكام
وأسكيا
نبوءاتهم
نبوءة
ككائن

ولــم يكــن الملك نائباً للإلة فقط ، وإنما هو نفسه مقدس وهو كملك مقدس لــيس بحاجــة إلــى أن يــأكل أو ينام ، ولذلك فهو لا يأكل فى حضور أحد على الإطــلاق، ولــدى ملوك بنين وأشانتى فروض دينية كثيرة ، أهمها تقديم القرابين للاســلاف. فالملوك لا يموتون وإنما يقصدون العالم الآخر ويظل موتهم سراً حتى يرتقى العرش ملك جديد(٣٤). وإلى جانب الطقوس الدينية كان يفترض فى الملك أنه يـتحكم فى المطر وخصوبة التربة ، وهو باعتباره متحكماً فى الخصوبة عليه أن يموت فى طقوس احتفالية(٣٥).

كذلك لم يكن الملك فى المناسبات الرسمية يخاطب أى شخص مباشرة، بل يفعــل ذلــك من خلال موظف يعرف بترجمان الملك ؛ ويصف أبن بطوطة مهام "الدونما(٣٦)" فى بلاط مالى بقوله "فمن أراد يكلم السلطان كلم الدونما" "ويكون بداخل المشــور تحت الطيقان رجل واقف فمن أراد أن يكلم السلطان ، كلم دونما ، ويكلم دونمالذلك الواقف" فهو المتحدث الرسمى باسم الملك ؛ ويتمتع بنفوذ هائل(٣٧). لذلك

والملــك ككائن مقدس يعامل باحترام شديد ؛ وتعتبر طبيعة الملك المقدسة جوهرية لفهم النظام الاجتماعى واحتفالات البلاط فى دولة مالى(٣٨). فمن غير هذه الطبــيعة لا يكون هناك معنى لبعض مراسم البلاط مثل اقتراب الشخص من الملك وهو يزحف على أربع وتتريب الرأس وغير ذلك من العادات(٣٩).

ولــم تكــن دولــة مالى هى وحدها التى تعامل الملك على أنه مقدس ، بل شــاطرتها فى ذلك بعض الدول الإسلامية الشهيرة مثل دولة الكانم والبرنو . على الرغم من كونها دولة إسلامية كانت تعامل إمبراطورها على أنه ملك مقدس ، ففى قاعــة التشريفات يجلس الملك فيما يشبه قفصا ذا قضبان ويغطى وجهه بلثام. ولم يكن المايات فى برنو يحملون سلاحاً أو يأكلون فى حضور أحد ، كما أن النبلاء لم يكونــوا يواجهون الملك ، مثال ذلك أن الغلديمة وهو الحاكم القوى للتخوم الغربية كــان يجلس وظهره إلى الملك مخافة ألا تحتمل عيناه الضعيفتان مهابة الملك التى هى كأشعة الشمس القوية(٤٠).

ومــن المؤكد أن الملك فى العصور المبكرة كان كاهناً فى الأساس ، ولكن السلطات الكهنوتية انتقلت فى بطء إلى آخرين ، ففى دلتا بنين كانت عبادة الأسلاف

مـــن الطقوس الدينية الرئيسية ، وظل الملك لا مجرد رئيس عسكرى ، بل الكاهن الأعلى[٤١].

لمـــا كان الملك مصدر كل السلطة ، فإن البلاط كان المؤسسة الأكثر أهمية فـــى الســـودان الغربى[٤٢] ، ولدينا لحسن الحظ رواية شاهد عيان لاحتفالات مالى فالـــبلاط يقيم مراسم فى غاية الدقة على الرغم أن هذه المراسم تختلف من منطقة لأخـــرى ، فـــإن المبادئ الأساسية واحدة إذ يزودنا ابن بطوطة بوصف غاية فى الحـــيوية لـــبلاط مالى ؛ فيقول أن سلطان مالى كانت "وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره ، يقعـــد فيها أكثر الأوقات[٤٣] ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب ... ، فإذا جلس أخرج من شـــباك أحدى الطاقات شرابة حرير ... ثم خرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى أيدى بعضـهم القسى ، وفى أيدى بعضهم الرماح والدرق. فيقف أصحاب الـــرماح منهم ميمنة وميسرة ، ويجلس أصحاب القس كذلك ... فيدعون نائبه قنجا موســـى ، وتأتى الفرارية وهم الأمراء[٤٤] ، ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام الســـلحدارية يمـــنه ويسره من المشور ؛ ويقف دونما الترجمان على باب المشور وعلـــيه الثـــياب الفاخرة[٤٥]. ويمضى ابن بطوطة قائلاً : "ذكر جلوسه بالمشور – ويجلس السلطان أيضاً فى بعض الأيام فى المشور وهناك مصطبة تحت شجرة لها ثـــلاث درجات يسمونها البنبى[٤٦]. وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ، ويرفع الشـــطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازى. ويخرج الســـلطان مـــن باب فى ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه ؛ وعلى رأسه شاشـــية ذهب مشدودة بعصابة من ذهب ، لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيـــد مـــن شبر . وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطـــنفس[٤٧] . ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر[٤٨] الذهب والفضة ؛ وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ، ويمشى مشياً رويداً ويكثر التأنى. وربما وقـــف يـــنظر فى الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر ؛ وعند جلوسه تضـــرب الطـــبول والأبواق والأنفار ، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون

القسى

بعصابة

النائـــب والفرارية فيدخلون ويجلسون ، ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ، ويقف دونما على الباب ، وسائر الناس فى الشارع تحت الأشجار[٤٩]".

وفى يوم الجمعة يقام بعد صلاة العصر نوع مختلف من الاحتفالات إذ يقول ابــن بطوطة أنه كان موجوداً فى سلطنة مالى خلال احتفالات عيد الأضحى. وعيد الفطــر[٥٠]. ويجلــس الســلطان فـــى أيام العيدين بعد العصر على البنبى ، وتأتى الســلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب وإغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور. ويقف على رأسه أربعة من الأمـــراء يشـــردون الذبـــاب ، وفى أياديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ، ويجلـــس الفـــرارية والقاضى والخطيب على العادة ويأتى دونما الترجمان بنسائه الأربع وجواريه ، وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهـــب والفضـــة فـــيها تفافيح ذهب وفضة ؛ وينصب لدونما كرسى يجلس عليه ويضرب الآلة التى هى من قصب وتحتها قريعات ، ويغنى بشعر[٥١] يمدح السلطان فـــيه ويذكـــر غزواته وأفعاله[٥٢] . ويغنى النساء والجوارى معه ويلعبن بالقسى ، ويكـــون معهـــن نحـــو ثلاثين من غلمانه ، عليهم جباب الملف والحمر[٥٣] ، وفى رؤوسهم الشواشى البيض . وكل واحد منهم متقلد طبلة يضربه ، ثم يأتى أصحابه من الصبيان ، فيلعبون ويتقلبون فى الهواء كما يفعل السندى ، ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة ، ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ، ويلعب دونما بالسيف لعبا بديعاً وعند ذلك يأمر السلطان له بالاحسان فيؤتى بصره فيها مائتا مثقال من التبر ، وينثر فيها علـــى رؤوس الناس ، وتقوم الفرارية فينزعون فى قسيهم شكراً للسلطان ، وبالغد يعطـــى كـــل واحد منهم لدونما غطاء على قدره ؛ وفى كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دونما مثل هذا الترتيب الذى ذكرناه"[٥٤].

"وإذا كـــان يوم العيد وأتم دونما لعبه ، جاء الشعراء ويسمون الجُلا (بضم الجيم) وأحدهم جاني[٥٥] . وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الـــريش تشبه الشقشاق[٥٦] ، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ، ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة ، فينشدون أشعارهم[٥٧] وذكر لى أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان أن هذا البنبى الذى عليه

جالى

جلــس فوقــه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كــذا، فأفعل أنت من الخير ما يذكر بعدك . ثم يصعد كبير الشعراء على درج من البنــبى فيضـــع رأسه على كتف السلطان الأيمن ثم على كتفه الأيسر ، وهو يتكلم بلســانهم ثم نزل وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام فاستمروا عليه(٥٨). "وحضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام ، فأتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة ، وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاماً كثيراً ، فقام القاضى فصدقه ، ثم صدقهما السلطان. فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه. وترب بين يديه(٥٩)" وحــتى عــندما أرســلت سفارة من مالى إلى بلاط مراكش حملت معها أوعية من الــتراب ليــترب أفرادها رؤوسهم(٦٠). ولكن المسلمين فى البلاط لم يكونوا يفعلون ذلــك، وإنما يكتفون بالتصفيق. وبالمثل فإن الاهالى يدخلون الحضرة الملكية وهم راكعون . فى حين يعفى الجانب من هذه العادة(٦١).

الأجانب

حينما نرصد الظواهر الاجتماعية ببلاد السودان الغربى ، اقتصر كلامنا ، واقتصــرت مقاطعنا الاستشهادية على المراكز الحضرية (المدن) وأهملنا مادونها، ونحــن لم نقصد ذلك فى عملنا ، وإنما اضطررنا إليه بسبب صمت المصادر إزاء المناطق الخارجة عن المجال الحضرى.

ومــع أن المادة الإخبارية تعوزنا فى رصد الظواهر الاجتماعية بالارياف السودانية . فإنها تطرح بعض المؤشرات الدالة على أن البوادى السودانية لم تتأثر كثــيراً بالإسلام. فى السياق نفسه تشير الشهادات المصدرية إلى بعض السلوكيات الاجتماعية الشائعة فى المدن السودانية والتى تنال من العقيدة الإسلامية وتدفعنا إلى الاقتــناع بأن المجتمع السودانى على الرغم من الحماس الذى أبداه تجاه الإسلام ، ظل ضعيف التأثر بالتعاليم الإسلامية في التطبيق الفعلي.

ومــثلما ســجل ابــن بطوطة الأفعال الحسنة للسودانيين فقد أثارت بعض مســاوئ أفعــالهم : وهـــى ما سوف نطرحه فى هذه الورقة : منها كون الجوارى والبــنات الصــغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات. ولقد كنت – يقول ابن بطوطة :– أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة".

ومـــنها دخول النساء على السلطان عرايا عنه مستترات وتعرى بناته (أى ظهـــور بـــنات السلطان عرايا أمام والدهن) ولقد رأيت فى ليلة سبع وعشرين من رمضـــان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا. ولأن رحالتنا استعظم هاتين الظاهرتين ، فقد استهان أو سها عن إضافة ظاهرة أخرى فى لائحة مساوئ السودان ، سبق وأن أغضبته كثيراً وأثارت حفيظته والأمر يتعلق باتخاذ السودانيين الرجال منهم والنساء على السواء للأصحاب ، وأيضاً أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير، ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدباً مع السلطان(٦٢) كيف يمكننا معالجة هذه الظواهر الاجتماعية ، هل بإصدار الفتاوى بشأنها أم بالعمل على تفهمها فى سياقها التاريخى.

هذا ما سوف نرصده من التقاليد القديمة فى مجتمع السودان بعد قليل.

وقد أعقبت عودة منسا موسى من مصر إدخال عادات إسلامية إلى البلاط فالمظلـــة(٦٣) علـــى ســـبيل المثال أصبح معترفاً بها كشارة ملكية ، وبدأت عباءات الشـــرف والعمـــائم تمنح تعبيراً عن الخطوة لدى الملك ، ويقول كعت إن الاسكيا الحاج محمد بنكن كان أول ملك يدخل الغترف وهو نوع من البوق ، وقبل ذلك كان حكام أيسرهم وحدهم الذين يستخدمون الغترف(٦٤).

كما أدخل بنكن عادة أخرى هى أن تسبقه موسيقى الدفوف عندما يخرج فى رحلـــة نهـــرية، وكان أيضاً أول من صنع أزياء من القطن لخدمة وزينهم بالأساور(٦٥).

وفـــى دولة سنغاى كان من عادة الملك حين يكون فى مجلسه ويريد أن يبصق أن يـــتقدم إليه أحد رقيقه ويمد إليه كمه فيبصق فيه. ويقدم رقيق آخر قطعة قماش كى يجفـــف شـــفتيه ، وعندما يخرج الملك أو أمير ملكى فى جولة بالمدينة على ظهر جواد يسير على جانبيه رجلان يمسكان بسرجه ، ويضع الملك أو الأمير يديه على كتفيهما(٦٦).

وجرت العادة فى مالى عندما يصل أى عربى إلى المدينة أن يقدمه رئيس الجالـــية البيضـــاء رســـمياً فى البلاط(٦٧). كما أعتاد السلطان أن يقدم للزائر هدية رمـــزية تعبيراً عن الترحيب بقدومه ، ولم يكن ابن بطوطة راضياً عن هديته(٦٨) . فعلـــى خلاف طغلق حاكم دلهى لم يكرمه امبراطور مالى على الرغم من أنه أقام

شـــهرين فى بلده[٦٩]. ولذلك فاتح الدونما الذى أشار عليه أن يشكو إلى السلطان . ومـــن الواضـــح أن ســـليمان قد نسى وجود ابن بطوطة فأصلح خطأه بأن أمر له بحصـــان ، ومـــنحه كل مايلزم لحياة مريحة ، كما أنعم عليه بهدية مقدارها ثلاث وثلاثون دوكة وثلث دوكة وعند مغادرة ابن بطوطة البلاد منحه الإمبراطور هدية مقدارها مائة دوكة[٧٠].

ويلـــى الملـــك مرتـــبة أمراء الأسرة المالكة والرؤساء البارزون وهؤلاء الرؤســـاء أمـــراء تـــابعون ، وقد جرت العادة فى بلاد السودان على استقدام أبناء الأتـــباع فـــى بلاط الحاكم الأعلى ، وهى عادة مكنت الملك من أن يغرس الشعور بالولاء فى قلوب الأمراء الذين يدفعون الجزية ، وسمحت بأن يكون هؤلاء الأمراء علـــى دراية بعادات البلاط الملكى وأساليبه ، كما أنها بمثابة تدبير وقائى فالأمراء يعتبرون رهائن لضمان حسن سلوك آبائهم .

آبائهم

ويلـــى أمـــراء الأسرة المالكة كبار موظفى الدولة وولاة المقاطعات وقواد الجـــيش غـــير المنتميـــن إلى الأسرة المالكة ، ويشكل هؤلاء الطبقات العليا. وهذه القشـــرة العليا الرقيقة ، وقد رأينا فى استحواذهم على الإدارة أنهم أصحاب السلطة الفعلية ، بما تحت أيديهم من مقاطعات.

وللأمـــراء أهمـــية خاصة فلهم مجموعة كبيرة بسبب كثرة أبناء الملك من جريمة – لتعدد الزيجات – فالأسكيا الحاج محمد يشتهر بأن لديه مائة من الأبناء ، ويشغل هؤلاء الأمراء معظم المناصب السياسية والرتب العالية فى الجيش ، ولأنهم يشـــكلون طـــبقة مســـتقلة – المينا فى برنو[٧١] والسن فى سنغاى[٧٢] – فلم يعدون عنصـــر اضـــطراب ، غير أنه ماعدا فى الموسى حيث يقطع أولاد الحاكم ضياعاً واسعة ، استمرت عادة الأباطرة في بلاد السودان فى استخدام الأمراء الملكيين فى الإدارة المباشـــرة ، وقـــد حـــاول الحكام انتهاج سياسة تدعم نفوذ الأسرة الحاكمة باتخاذهن زوجات من قبائل مختلفة وتزويج بناتهم بأتباعهم ، وهكذا تزوج مقشرن كـــى بإحدى بنات الأسكيا[٧٣]. ولو كان محمد ابن بكر الطورى من السركلى وابن أخت سن على لتزوجت أخت هذا الأخير بأحد رؤساء السركلى.

فهم

حريمه

يقـول ابـن أمير حاجب ان الطبقات العليا تتمتع بحق "السيد" وقد استدعى حاجـب انتباه منسا موسى إلى تعارض ذلك مع الإسلام وضرورة عدم السماح به وتساءل الملك عما إذا كان يمكن أن تستثنى الأسرة المالكة من ذلك ولكن عندما قيل له أن ذلك غير ممكن أقلع عنه[٧٤].

ومع ذلك ظل هذا الحق قائماً إذ يذكر الفتاش أن حاكم بر حصل على وعد من أسكيا محمد بالا تؤخذ بناته كمحظيات وإنما كزوجات شرعيات[٧٥].

ويـبدو مـن هذه الرواية أن الأمراء التابعين عليهم أن يرسلوا بناتهم إلى الحـريم الملكـى : ولم يقتصر الأمر على ذلك فمن الفجور أن يستأثر الحاكم بأخذ بـنات الجـنود كمحظيات فى القصر الملكى. إذ كان الجنود يعدون رقيقا للعرش الملكـى، ومـن هنا فله الحق على بناتهم ، ولما كان الرق هو أساس المجتمع فى السـودان الغربى فقد تفشى الفجور على نطاق واسع فالطبقات العليا كانت تحتفظ بحريم كثيرة ، وكذلك بعدد كبير من الجوارى كما جرت عادة السلاطين أن يقدموا هـبات مـن الجوارى لكبار النبلاء والعلماء ، إذ كانت هذه الهبات إحدى الوسائل القليلة لكسب رضاهم. لذلك فلا عجب أن ذكر الفتاش أنه لم يولد أحد من الأساكى من أم حرة عدا الأسكيا الحاج محمد مؤسس الأسرة السنغائية[٧٦].

وعلـى الرغم من أن القصر الملكى تكثر فيه النساء من المحظيات ـ إلا أنهن كن موضع تقدير ، ولا ينظر إليهن بأية حال على أنهن مجرد متاع[٧٧]. فضلاً عـن ذلـك فإن الملكة الأم والملكة تشغلان مناصب هامة فى البلاط ويشير ابن بطوطـة أن العـادة جـرت بتتويج الملك مع حضور الملكة التى تشاركه السلطة الملكية[٧٨]. وبين الموسى أيضاً تتوج الملكة وتشارك فى السلطة مشاركة فعالة[٧٩]. وعند الأشانتى تقوم الملكة الأم بدور نشط للغاية ، وحتى عند الأكان ينتخب الملكة الأم مجلـس العشـيرة الملكية . وهى ترأس الدولة عند غياب الملك وإذا مات أحد الحكام فإن الملكة الأم تتشاور مع كبار الموظفين ليتعين خلف له[٨٠]. لتعيين

والطـريقة المـتحررة غير العادية التى يعامل السودان النساء بها تنعكس بدورها فى موقف الشيخ عثمان الذى عالج هذه القضية بطبيعة الحال بالرجوع إلى القرآن . وقد دلل على أن القرآن لم يخص المرأة فى آية منه بإعداد الطعام وغسل آية

الملابس . وإن الزمهن بطاعة أزواجهن بما يتفق وتعاليم القرآن وأحكام السنة ، ولذلك فمن الضرورى أن يتعلمن ، أما الرجال الذين لا يعلمون بناتهم أو زوجاتهم فإنما يفعلون ذلك بدافع من حب الذات(٨١).

وهكذا كانت المرأة فى السودان الغربى ذات مكانة مرموقة : وبالأخص فى دولة مالى الإسلامية أصبحت ذات مكانة عالية ، ولعل مرجع ذلك أن البربر والطوارق أصحاب أعظم الأسر فى نشر الإسلام فى بلاد السودان الغربى كرموا المرأة على الرغم مما ذكره ابن بطوطة من الإباحية التى كانت سائدة بين الجنسين "دخلت يوماً على أبى محمد يندكان المسوفى الذى قدمنا فى صحبته فوجدته قاعداً على بساط وفى وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان. فقلت له ماهذه المرأة ؟ فقال هى زوجتى ، فقلت وما الرجل الذى معها ؟ فقال هو صاحبها ، فقلت له أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟ فقال لى مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة ، لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم. فعجبت لرعونته وانصرفت عنه"(٨٢).

ويمضى ابن بطوطة قائلاً : "دخلت يوماً على القاضى بايو الاتن ، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع فضحكت منى ولم يدركها خجل : وقال لى القاضى لم ترجع ؟ أنها صاحبتى فعجبت من شأنهما فإنه من الفقهاء الحجاج ، وأخبرت أنه استأذن السلطان فى الحج فى ذلك العام مع صاحبته لا أدرى أهى هذه أم لا فلم يأذن له(٨٣).

وتلى هؤلاء الأمراء والملوك الأتباع طبقة المعلمين التى يتوقف نفوذها الفعلى على ورع الملك وعلى سياسته ، فخلال حكم الأسكيا الذى منحوه تأييدهم كطبقة أو خلال حكم ملوك البرنو ، تمتعوا بنفوذ قوى للغاية(٨٤). وفى الوثنية كان السحرة يحتلون مكان المعلمين ، فللسحرة نفوذهم القوى فى السودان الغربى ، ويعدون بصورة ما طبقة وراثية(٨٥).

ويلى المعلمين طبقة التجار ورؤساء الطوائف الذين كانوا موظفين يعينهم القصر على الرغم من ضآلة مكانتهم . وكان لدى البعض منهم عدد كبير من الرقيق الذين يستخدمون إما فى العمل كحمالين أو كادحين فى الحرف والصناعات،

وبـرغم أنهـم نادراً ما أهتموا بالسياسة وأن دورهم الاجتماعى كان محدودا ، فقد قاموا بدور هام فى الاقتصاد السودانى[٨٦].

ودونهـم بكثـير يأتى الأحرار الذين يعرفون فى بلاد الهوسا بالتلا كاو ، وطـبقة التلا كاوا أكبر مجموعة فى كل المجتمعات السودانية فحوليات كانو تشير على سبيل المثال أن حوالى نصف سكان إمارة كانو ينتمون إلى هذه الطبقة. وأن أفرادها بصورة ما أسوأ حالاً بكثير من رقيق المنازل لدى الحكام وكبار الأمراء[٨٧].

ويلـى الأحرار من هم من نسل الرقيق ، فهؤلاء حتى وإن لم يعودوا رقيقا لا يصبحون أبداً أحراراً تماماً ، فهم يستخدمون عادة فى بيوت أسيادهم ، ويظلون مـن موالى الأسرة كما يقدمون الهدايا لأسيادهم السابقين الذين من حقهم أن يتخذوا من بناتهم جوارى لهم.

ويلى الأحرار من يولدون لآباء من الرقيق ، فهؤلاء يظلون رقيقاً ، ويعمل أغلـبهم فـى خدمـة أسيادهم ، ويظلون على أرضهم ، ومع ذلك فهم لا يفلحون الأرض ، وإنما يصبحون من أرباب الحرف وباستطاعتهم أن يعملوا فى مزارعهم الخاصة بعد الانتهاء من العمل الذى يعهد به أسيادهم إليهم[٨٨].

وهـناك حدود لحريتهم ، فليس باستطاعتهم مغادرة أرض سيدهم دون إذن مـنه ، وعلـيهم أن يحصلوا على إذنه قبل الزواج بفتاة سرعان ما تصبح جارية لسـيدهم إذا حـازت اعجابه ، ومن ناحية أخرى لا يستطيع سيدهم بيعهم ، وبذلك يكونون أكثر شبهاً بالأقنان منهم بالرقيق[٨٩].

وهكـذا يمكن بوجه عام تقسيم الرقيق إلى أربع فئات فى القمة يأتى الرقيق فـى بيـت الملك ، ومنازل عليه القوم وهؤلاء لا يديرون أملاك سيدهم فقط ، بل يسـتطيعون أيضاً أن يصبحوا قواداً ، وأن يمارسوا نفوذاً قوياً فى الجيش ، ويليهم رقيق الجيل الثانى الذين يتمتعون ببعض الحقوق ولا يمكن بيعهم ، وإلى الفئة الثالثة ينـتمى الرقيق الذين يحترفون المهن وأخيراً يأتى الرقيق الذين يفلحون الأرض أو يعملون فى المناجم[٩٠].

وقـد قامـت الزراعة فى السودان الغربى على عمل الرقيق فالملك يمتلك عـدداً كبـيراً من القبائل ملكية شخصية ، من ذلك أن الأسكيا حصل بعد إنتصاره

علـــى سن بار على أربع وعشرين قبيلة مملوكة لأسرة سن ، وحرر منها الأسكيا اثنتى عشرة قبيلة بناء على مشورة عبد الرحمن السيوطى أما القبائل الاثنتا عشرة التى احتفظ بها فهم أساساً طبقات محترفة تشتغل بأعمال تخص العبيد(٩١).

وكـــان الاقتصـــاد يعتمد على هذه القبائل الاثنتى عشرة إلى جانب الرقيق الآخريـــن الذين يؤسرون فى الحروب ، وهؤلاء جميعاً مرتبطون بالأرض ويمكن بـــيعهم أو تقديمهم كهدياهم والأرض التى يفلحونها(٩٢) . وقد قدم الأسكيا محمد إلى القاضى محمد تل على سبيل الهدية أكثر من سبعين قرية تقيم فيها ثلاث من القبائل المستعبدة وكذلك الإيجار الذى يدفعه الرجال الأحرار فى هذه القرى ، وذلك مجرد مثال واحد(٩٣) . فالكرم الملكى يتجلى فى صورة هدايا من الرقيق ومن الضياع بمن علـيها مـــن الرقيق ، وهذا النوع الأخير يقدم إلى العلماء ، ولكن القبائل المستعبدة أساس الاقتصاد ، فإنه يجدر بنا تتبع دورها فى منطقة السودان الغربى. وثلاث من القبائل التى حصل عليها الأسكيا محمد من سن بار تتبع البمباره واعتادت العمل فى ضـــياع الطـــبقة الموسرة وحكام دولة مالى . كذلك استخدم سن بار أفرادها كأقنان زراعيـــين ، فـــيعطى كـــل زوج قطعـــة أرض صغيرة يزرعانها لسيدهما ويكون محصولها لمن يضمهم البيت الملكى ، ويخزن الفائض فى المخازن الملكية ، وظل هذا النظام معمولاً به حتى أيام الأسكيا محمد الذى انتهج سياسة مختلفة ، فقرر حداً أدنـــى يتعين على المزرعة أن تنتجه ، وحداً أقصى لما تحصل عليه الدولة منها ، وما يفيض عن ذلك يكون من حق الزارع(٩٤).

وواجـــب القبيلة الرابعة هو قطع الحشائش اللازمة للجياد . وفى أيام حكم الأسكين فرضت عليها مهمة جديدة هى صنع القوارب التى يستخدمها شباب القبيلة فـــى قطـــع الحشائش من ضفة النهر. كذلك عهد إليهما الأسكيا محمد بمهمة رعاية الخـــيول الملكـــية(٩٥) أمـــا القبيلة الخامسة فعليها واجبان : أحدهما توفير الأسماك المجففة للبيت الملكى ، ثانيهما تلبية طلبات الأسكيا من وسائل النقل النهرى. ولهذه القبيلة ميزه ما على غيرها. فأبناؤها مكرسون كلية لخدمة الملك ولا يمكن لأحد أن يســـتخدمهم أو يبيعهم إلا بإذن صريح من الملك ، ماعدا الصقلى الذى منح بعضاً مـــنهم علـــى سبيل الهدية(٩٦). والقبيلة السادسة مخصصة للعمل فى البيت الملكى.

كهدايا لهم

الأسكيين

فأبناؤها يعملون خدماً فيه ورسلاً خصوصيين للملك ، كما يقومون بدور الحرس للملك عند خروجه ، ولكونهم مكرسين للخدمات الشخصية فقط ، فإنهم معفون من أن ينتجوا شيئاً لاستعمال القصر[٩٧]. أما أبناء القبائل من السابعة حتى الحادية عشرة فيستخدمون كحدادين فقط. وهذه القبائل من سلالة رقيق مسيحى قدم إلى جاو من جزر المحيط الأطلسى . وعلى كل أسرة منها أن تصنع مائة حربة ومائة سهم فى السنة[٩٨].

وثمة حدث يلقى ضوءاً قوياً على الأحوال السائدة فى تلك الأيام هو النزاع بين كعت وكبر فرم شأن حقل أرز منحه الملك لكعت ، من ذلك أن كبر فرم لم ينازع فى المنحة الملكية ، وإنما أدعى أن الأرض جزء من الدومين العام ، وأنها كانت دائماً جزءاً من أملاك كبر فرم يفلحه من أجل الملك. فضلاً عن ذلك فإنه مهما يكن حق المعلم محمود كعت فى الأرض فهذا الحق لم يعد قائماً لأنه لا يفلحها وعلى الرغم من أن الموظف عجز عن أن يجد له مخرجاً . فإن أراضى الدومين الملكى شكل جزءاً بالغ الأهمية من اقتصاد السودان الغربى.

وجرت العادة فى بلاد السودان أن يستخدم الرقيق من أسرى الحرب فى مزارع السلطان مالم يكن قد بيعوا لتجار أجانب ، وكانت تستخدم فى مزارعه بوجه خاص قبائل الموسى والدغون والبمبارة التى حار بها السنغاى. والدوغون

وكل عمل خيرى فى السودان الغربى كان أساسه الفلاحة التى يقوم بها الرقيق. وهكذا فإنه من أجل إطعام خفراء تنبكت خصص الأسكيا داوود للفقراء مزرعة عرفت بالجنان يفلحها ثلاثون من الرقيق[٩٩].

أما مجموعة الرقيق الذين يعرفون برقيق البيت الملكى فلهم بطبيعة الحال وضع خاص، فهم فرقة مختارة يتمتعون بميزات يفتقر إليهما غيرهم من الرقيق[١٠٠].

وعلى الرغم من قيام دولة سنغاى التى خلفت دولة مالى فى بلاد السودان خلال الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فقد ظلت المصادر العربية والبرتغالية تشير إلى مالى ؛ وباتصال قبائل الماندنجو مع البرتغاليين ثم الأسبانيين فى مرحلة لاحقة ، خرجوا من حالة العزلة ، واعتقدوا بإمكانية استرجاع ريادتهم السياسية والاقتصادية فى بلاد السودان ، غير أنهم

فوجـئوا بأن ثمن الخيول والحمير وغيرها من السلع التى جاء بها المسيحيون كان هو الاسترقاق والعمل فى مزارع القطن والسكر بأمريكا ، وليس الذهب وبعد وقت وجـيز أدركـت قـبائل الماندنجو أن أدغال الغابات الاستوائية وأهوال الصحراء ومخاطـرها أهـون بكثـير من المسيحية الآتية من البحر[١٠١]. حقاً لقد انتصرت الكارفيلا على الجمل لكن ماذا كان الثمن ؟.

وسـنحاول فـى الفصل القادم أن نطرح طبيعة البناء الاجتماعى السنغائى زمن أسرة الأسكيين فى الحضر والمدن ، وداخل الريف السنغائى.

أولاً : البناء الاجتماعى السنغانى زمن أسرة الأسكيين

تمـيز مجـتمع سـنغاى سواء فى المدينة أم فى القرية بالاهتمام بالروابط الأسـرية. إذ كانـت الأسـرة هـى العنصر الأساسى الذى ترك طابعه على كل المؤسسات الاجتماعية وعلى الحياة اليومية[١٠٢].

وتضـم العشائر أسراً متعددة تعود جذورها إلى الأصل السوننكى (تورى ، سيلا ، تونكارا ، سيسى ، دياكيتا ، درامى ، دياوارا) والقليل منها من أصل سنغاى (المايجا) وهنا تطرح المشكلة الخاصة بتركيب شعب السنغاى الذى أختلط اختلاطاً قوياً بأقوام من السوننكى والبربر ؛ وأصول الماندنجو ؛ والجبرى والهوسا[١٠٣].

علـى أن السمة الأساسية فى مجتمع سنغاى هى تنظيمه فى فئات متدرجة تبدأ بالطبقة الموسرة من العائلة الحاكمة والأمراء ؛ وكبار رجال الدولة ، ثم طبقة الأحـرار ثـم طوائـف العمال وأخيراً العبيد[١٠٤]. وهذا الأمر هو الشائع فى كل السودان الغربى . ففى هذه المنطقة تظهر ملامح طبقة النبلاء بوضوح أكبر ، وكان أفـرادها يقصـرون اهتماماتهم على الإدارة والحرب[١٠٥]. أما العبيد فكان عددهم كبيراً ، فكانوا يقومون بالأعمال المنزلية أو يشتغلون فى الحقول ، على أن دورهم السياسى والعسكرى كان ثانوياً جداً[١٠٦].

المجتمع الريفى :

كـان مجتمع سنغاى قد أخذ فى التطور نتيجة اعتماده على اقتصاد السوق ومن ثم نشأت حرف تجارية عريقة على امتداد نهر النيجر[١٠٧]؛ على أن العامة فى

حرف

سنغاى المنتشرين حول القرى ظلوا يمارسون أنشطة ريفية ، إذ كان الفلاحون فى القرنيين الخامس عشر والسادس عشر مجتمعين فى أكواخ مستديرة ولاسيما فى منطقة جنى التى اعتمدت بوجه خاص على المنتجات الزراعية(١٠٨) . وقد وجد طوائف منظمة من الحرفيين (مثل الحدادين والنجارين والخزافين ، وكان نشاطهم المهنى موسمياً على أغلب الظن ، وكذلك الشأن بالنسبة لصيادى النيجر(١٠٩) (السوركو والبوزو والسومونو) الذين كانوا يمارسون الفلاحة فى فصل الشتاء ، ويبدوا أن ظروف المعيشة لم تكن بالبؤس الذى يصوره ليو الأفريقى إذ كان الأمن مستقراً والمجاعات نادرة ، وتقدم لنا المصادر الإسلامية مؤشرات بخصوص الحياة فى الريف التى انطبعت بالرخاء، نتيجة ما كان يمارسه الفلاحون من عرض انتاجهم فى الأسواق المحلية ، ويقايضون بذلك على منتجات الملح والمنسوجات وهو ما عرف بنظام المبادلات التجارية(١١٠).

ومن الناحية الدينية لم يتأصل الإسلام فى الريف فقد بقى الفلاحون متمسكين بقيم أرضهم وظلت منطقتا الدندى والجنوب وهما من أكثر المناطق الريفية أصالة – على ما كانتا عليه من معتقدات تقليدية على الرغم من اعتناقها الإسلام(١١١). وهكذا بقى الريف مع انفتاحه على اقتصاد السوق مغلقاً إلى حد ما أمام القيم الروحية الآتية من المدينة ، والمدينة هى العنصر الثانى فى مجتمع النيجر(١١٢).

المدن والمجتمع الحضرى :

أدت النهضة التجارية الكبيرة إلى نمو مدينة حضرية فى كل منطقة السودان الساحلى. إذ نجد فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر مدناً مثل ولاته وجنى وتفكو وتنبكت وبامبا وجاو وأغاديس ؛ ومدن الهوسا مثل كاتسينا وكانو ، كانت بصورة عامة مدناً مفتوحة بغير أسوار ، والأسواق بداخل المدينة(١١٣) . أما الأطراف فكانت تقام فيها الخيام والأكواخ لقبائل الرحل ، على أن وسط المدينة يعج بالدور المبنية بالطوب على الطراز السودانى ذات طابق أو طابقين. وداخل كل بيت فناء تطل عليه الحجرات(١١٤).

وكانت أكبر المدن ثلاث هى تنبكت[١١٥] وجنى[١١٦] وجاو[١١٧] ، فمدينة تنبكت التى تم فتحها على يد "سن على بار الكبير عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م بلغت ذروة مجدها فى القرن السادس عشر ، وبلغ تعداد سكانها مايقرب من ٨٠,٠٠٠ نسمة فى عهد الأسكيا داود ، وكانت حينذاك العاصمة الاقتصادية للمملكة والمدينة المقدسة للسودان الغربى فهى مشهورة بأوليائها ومساجدها الجامعة[١١٨].

ومدينة جنى جزيرة فى الدلتا الوسطى وترتبط اقتصادياً وروحياً بتنبكت ، ويبلغ عدد سكانها ما بين ٣٠ و ٤٠ ألف نسمة ، وكانت فى الحقيقة أهم تجمع سكانى يلتف حول المسجد الجامع الذى يمثل درة الفن السودانى ، كما تمثل أكبر سوق فى الجنوب[١١٩] . أما مدينة جاو فهى العاصمة السياسية وهى أقدم من المدينتين السابقتين ، مساحتها تستوعب حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، وبحكم موقعها كان اتجاهها الطبيعى نحو الهوسا والدندى[١٢٠].

ونلاحظ أن كل مدن النيجر تضم العديد من القبائل السنغائية سكاناً مختلطين من العرب والبربر[١٢١]؛ ومن الموسى والهوسا والماندنجو، والسوننكى والفولانى[١٢٢].

فالمجتمع الحضرى مجتمع طبقات وفئات على النمط السودانى غير أن معيار التمايز هنا كان معياراً اقتصادياً ، إذ يتكون المجتمع الحضرى من ثلاثة عناصر أساسية وهم التجار والحرفيون ورجال الدين ويعيشون جميعاً بشكل مباشر أو غير مباشر على التجارة[١٢٣].

والتجار فى غالبيتهم من الأجانب[١٢٤] ، أما الصناع وصغار التجار فكونوا طبقة نشيطة متحركة تتجمع فى طوائف لها نظمها وتقاليدها[١٢٥] ، وأما رجال الفكر والعلماء والفقهاء والأولياء والطلاب فقد حظيوا بمنزلة من التقدير الاجتماعى من النخبة الحاكمة.

هكذا يمكن القول أن مجتمع النيجر حظى بمستويات اجتماعية يأتى فى مقدمتها الطبقة الأرستقراطية التى نعمت بالحياة المترفة وخاصة أبناء الأسرة المالكة.

وهكذا يختلف المجتمع الحضرى اختلافاً بيناً عن المجتمع الريفى التقليدى ، ولكنه لم يستطع أن يطغى على الريف وكانت معظم الطبقة القيادية الحاكمة فى هذا

المجتمع تتكون من الأجانب ، ومشبعة بالقيم الإسلامية والتجارية . تعيش جنباً إلى جنب ولكن فى حالة انفصال عن المجتمع الكلى. فكبار التجار لم يتمكنوا من ترسيخ أقدامهم فى البلاد ، وكان اقتصادهم اقتصاد معاملات وصفقات ولهذا لم يستطيعوا إحداث تأثير عميق ودائم فى المجتمع السنغائى.

وإلى جانب هؤلاء عرف مجتمع سنغاى طوائف عديدة مثل الموسيقيين القوالين أو المداحين الذين يستفاد مما ذكرته المصادر أنهم كانوا غرباء على مجتمع السنغاى ، حيث أن القوالين الجيزيرى Gesere كانوا من السوننكى ، بينما كان المابو Mabo من الفلانيين الذين جاءوا من منطقة ماسنيا(١٢٦). ما سبينا

أما العشائر التى اعترف بها فى هذه البلاد من الرقيق ، والتى كان لها امتياز على غيرها ممن كان فى نفس مستواها ، والتى كانت تمثل أساس الجانب التقليدى لتراث الأساكيين فإنهم فى الأصل من الماندنجو ، وتقول الروايات الشفاهية أن بعض الحدادين والنجارين فى مدينة تنبكت كانوا موضع تقدير واحترام من غالبية الشعوب ، وبذلك نرى أن المهارات الفنية التقليدية كان معترفاً بها ، بينما لم تكن الحرف المدنية مثل البناء والجزارة وصناعة الخبز وغيرها كذلك أقل شأناً ، ومهما يكن من هذه التقاليد فإن ممتهنى هذه الحرف الشعبية ، قاموا بدور اقتصادى هام فى هذا المجتمع علاوة على دورهم السياسى ، إذ كان القوالون الجيزيرى من بين أكثر المسموعين كلمة فى المجلس الملكى ؛ كما كانوا فوق ذلك يكلفون بمهام خاصة من قبل أسكيا إلى محافظى الأقاليم أو تجار المدن الكبرى ، ويذكر بهذا الصدد أن نوعاً من الألفة كانت قائمة بين السلطان أسكيا وبين زعيم القوالين الجيزيرى الذى كان الوحيد من بين هيئة التشريعات الملكية الذى له مسائلة السلطان بصفته(١٢٧).

ويستفاد من أوصاف المؤرخين السودانيين أن مدينة تنبكت كانت موطناً لكثير من الأجناس فى العهد المغربى ، فكان هناك المغاربة (من فاس ومراكش وتوات ودرعه ، والتونسيون والتوارك وصنهاجة ومسوفه وأهل ولاته وزنوج من مختلف الأجناس وأهمهم الفولانيون ، والماندنجو والبورنيون ، والبمبارة(١٢٨).

لقد كانت عادات المجتمع الحضرى السودانى خليطاً معقداً من التقاليد القديمة ، ومن التأثيرات التى حملها المغاربة معهم وانتقلت إلى السودانيين على مر السنين وظهرت هذه التأثيرات فى الحياة اليومية ، والعادات واللباس والزينة ، والطعام والشراب والأثاث المنزلى والفنون.

ثانياً : العادات والتقاليد للعائلة السنغائية

مجتمع سنغاى ، مجتمع إسلامى تتخلله بعض المجتمعات الوثنية ، وأول ما يطالعنا فى هذا المجتمع لدى الأسرة الحاكمة تعدد الزوجات وكثرة السرارى. وما يتبع ذلك من كثرة الأبناء[١٢٩]. فصاحب الفتاش يقول ، إن الأساكى جميعهم أولاد سرارى باستثناء أسكيا الكبير ، ورغم أنه كان يعاصر أسكيا الكبير وحج معه ، إلا أنه لم يستطع أن يحصى جميع أبناء وبنات أسكيا ، إذ ذكر من الذكور ٣١ ومن الإناث ١٩ ، وعلق على ذلك بقوله إن هذا ماحصره فقط ، وفى رواية أخرى كان لأسكيا الكبير نحو مائة من الأبناء وأصغرهم وُلد حين كان أسكيا قد بلغ التسعين من عمره[١٣٠].

ويذكر صاحب الفتاش أن أبناء أسكيا داود (١٥٤٩-١٥٨٢م) من الذكور والإناث ٦١ نفساً ، وأنه عند وفاة الأسكيا أن بن داود عام (١٥٨٢-١٥٨٦م) ، حصر من الأولاد داود وحفدته وأسباطه أكثر من سبعين فارساً ، فكثرة الأبناء هذه، كانت من عوامل الصراع والتنافس بين أبناء أسرة الأساكى[١٣١]. وقد استمرت تحية أهل مالى مثلما عرضنا من قبل ، فالتحية المألوفة فى سنغاى إذا دخل شخص على أسكيا هى الترتيب فيبحثو) القادم على ركبتيه ويقلع طاقيته وينثر التراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء ، ولكن المقربين من أسكيا كان يعفى من حمل التراب ، ويحمل الدقيق بدلاً منه ، مثل جنيكى – أى حاكم مدينة جنى – زمن أسكيا الكبير ومنهم من يعفى من خلع طاقيته مثل كرمن فار عمر كمزاغو أخى أسكيا الكبير وذلك زمن ولايته وإذا صادف ودخل خادم أو موظف على أسكيا أكثر من مرة عليه أن يخلع الطاقة وأن يترب فى كل مرة مثل امساكل الله ، رئيس "فنافى" العبيد عند أسكيا داود ، ومعنى اسمه مسا كل ، كما شرح صاحب الفتاش (كل أمر كان ويكون من كل ماهو كائن فى الدنيا والآخرة ، الله مقدره ومكونه سبحانه لا إله

إلا هـــو ، ومعـــنى فنا فى هو رؤساء العبيد أى أن مساكل الله رئيس رؤساء عبيد داود[١٣٢].

وهناك بعض ألفاظ تقال عند مقابلة أى شخص لأسكيا كدليل على الاحترام والاستئذان لمحادثته فى أمر يهمه وهى "تمل تمل" (بفتح التاء والميم واللام) حفظك الله ، قالتها العجوز التى دخلت على أسكيا داود ، ترجوه الا يبيع أولادها وحفائدها الذين أسرهم إلا إلى شخص واحد ولا يفرقهم وكانوا ٢٧ نفساً ، فأعتقهم لها[١٣٣].

وكذلك عبارة تنكر تكر تكر (بضم التاء وسكون النون وفتح الكاف والراء) قالهـــا رسول اسحاق بن داود على أثر ولايته العرش عام ٩٩٦هـــ / ١٥٨٧م إلى أخـــيه الـــثائر ضده بلمع صادق وذلك ليعلمه أن أسكيا اسحاق قد ولى العرش وهو يسلم عليه ومثل هذه العبارات أو الألفاظ يتضمن معنى الاستئذان المهذب لمخاطبة السلطان"[١٣٤].

ومن العادات السيئة فى مجلس السلطان ، ما يحدث فى مجلس يوم الجمعة فـــى العاصـــمة جاو ، فمثلاً كان أسكيا داود (١٥٤٩-١٥٨٢م) فى مجلس الجمعة وحوله عبيده الخصيان يقفون علـــى رأسه وهـــم نحو ٧٠٠ وعلى كل واحد لباس حريـــر فإذا أراد أسكيا أن يبصق أو يتفل أسرع إليه بعض الخصيان وبسط له كمه فيبصق أسكيا فيه ثم يمسح فاه من النخام.

وقـــد انـــتقده الفقـــيه أحمد بن سعيد سبط القاضى محمود بن عمر (توفى القاضى محمود بن عمر عام ٩٥٥هـــ/١٥٤٨م) وقال له : "عجيب منك حين دخلت علـــيك ، وما أحسبك إلا مجنوناً رذيلا سفيها حين رأيتك تبصق فى أكمام قمصان الناس يحملون على رؤوسهم التراب[١٣٥]".

هذا وقد تمتع سلاطين سنغاى بثروات ضخمة ومن أمثلة ذلك ضياع أسكيا داود (ت٩٩١هـــــ/١٥٨٣م) التى يضرب المثل بها يقول صاحب الفتاش وأحراثه من الطعام مالا يعد ولا يحصى ، وله فى جميع القرى التى فيها أملاكه عبيد وفنف – أى رئيس العبيد – وحرث ، وتحت يد بعض الفنافى ١٠٠ عبد أو ٥٠ أو ٦٠ –٤٠ –٢٠.

كمـــا كان معروفاً كذلك بالأعمال الخيرية ، فقد حدث أن منح الفع محمود كعــت صـــاحب الفتاش ما عينه بنفسه لتجهيز بناته الأربع وأبنائه الخمسة بمناسبة الزواج وكانت المنحة ضياعا وخيولا وعبيدا وملابسا(١٣٦).

ومن التقاليد السائده فى سنغاى تقبيل أيدى الحجاج إذا عادوا من حجهم فقد جرت العادة أن ينزل الحجاج العائدون خارج المدينة ولا يدخلونها إلا بعد استئذان أسكيا فيخرج أسكيا لملاقاتهم ويهديهم بالكسوة واللباس ويسألهم الدعاء ويتبرك بهم(١٣٧).

وفـــى مجـــتمع ســـنغاى تمتع الأشراف بمنزلة سامية والواقع أن الأشراف يتمتعون بنفس المكانة فى جميع السودان الغربى وفى بلاد المغرب وغيرها. وكان أســـكيا الكبير قد طلب من أمير مكة أن يبعث إليه بأحد الأشراف فاستجاب له(١٣٨). وحـــدث أن أسكيا داود قتل أحد الأشراف خطأ عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م ، فندم وأخذ يبكى أياماً ، وعزم على صوم الدهر ، وعندما جمع العلماء واستفتاهم فى الاستغفار لهـــذا الذنـــب العظيم قالوا له : "أن تفزع إلى رسول الله (ص) وتهرب وتدخل فى حرمـــته وتستشفع به ، وإذا لم تقدر فلك دية فى الشرع" وقدروا الدية بثلاثين نفساً يعطـــيها لأخ القتـــيل ، ولما سأل أخ القتيل عما يفضله من الأموال أختار الأرض فأعطاه ثلاث ضياع بعبيدها(١٣٩).

تقاليد الحياة اليومية لدى العائلة السنغائية :

صـــنعت الأســـرة الســـنغائية ثقافـــتها الخاصة من حيث المأكل والمشرب والملبس والمسكن والموسيقى والغناء والأساطير (التراث الشفاهى) وطبعتها بطابع خاص ينعكس على منطقة السودان الغربى.

ومهما تكن المصادر المحلية شحيحة فى هذه الناحية لأنها كتبت بعد القرن الســـادس عشـــر ، أهتم فيها أصحاب مصادرنا المحلية من كتابى تاريخ السودان وتـــاريخ الفتاش تسجيل سير الملوك والأمراء وعنايتهم بالحياة الخاصة وأعمالهم ، فإن الباحث يستطيع رصد وكشف العديد من ملامح الحياة اليومية للأسرة السنغائية خلال عهد الأسكيين سواء لدى الطبقة الخاصة والعامة.

الأطعمة والأشـــربـــة :

تخــتلف طــرق المعيشـــة عند كل من بربر الصحراء والسودان الغربى بأختلاف طبيعة الأراضى التى يعيشون فيها ، والظروف التى يخضعون لها. فبينما نجــد أهــل الحواضــر من البربر يعتمدون على بعض أنواع الزراعة البورية أو المسقية ، نجد المتغربين منهم "لا يعرفون الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شــيئاً مــن الحــبوب ... - وقوام حياتهم باللبن واللحم[١٤٠]". غير أن القريبين من سجلماســـة "يأكلون البُر ويعرفون الشعير ويزرعونه والتمور والطيبان". أما القمح فى أودغَشْت فطعام الملوك وأهل اليسار ، وغيرهم يقتاتون بالذرة. ولعل علة ذلك أن القمح فيها يزرع بالفؤوس ويسقى بالدلاء[١٤١].

وطعـــام أهـــل الصحراء عامة "صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشـــحم المـــذاب أو السمن وشرابهم اللبن وقد غنوا به عن الماء". أما أهل تادمكه فيقـــتاتون - فضـــلا عـــن اللحم واللبن : من "حب تنبته الأرض من غير اعتمال" وتجلب إليهم الحبوب من بلاد السودان[١٤٢].

وأهل توات يشترون الغنم من كاهر ويقدون لحمها ويحملونه إلى بلدهم. أما بـــودا وهى من أكبر قرى توات فلا زرع بها ولا سمن ولا زيت ... ومن ثم فأكل أهلهـــا التمر والجراد "يخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس لأنه لا يطير إذ ذاك بسبب البرد".

ويقددونه

أما مدينة إيوالاتن فيقدمون لضيوفهم جريش أنلى مخلوطاً بيسير عسل ولبن يضعونه فى نصف قرعة تشبه الجفنة. وبين إيوالاتن ومالى غابة "فيها أشجار تثمر شـــبه الفقـــوص ، فـــإذا طاب انفلق عن شئ شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالأســـواق". وفيها حبات كالفول تستخرج من الأرض تقلى وتؤكل وطعمها كطعم الحمـــص المقلـــو ، وقـــد تطحن ويصنع منها شبه الإسفنج يقلى بالغرتى وهو ثمر بالإجاص شديد الحلاوة ، ويدق عظمه ويستخرج منه زيت متعدد المنافع "فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير".

كالإجاص

وفـــى السودان الغربى من الأطعمة بالإضافة إلى أنلى "دقيق النبق والأرز والفونى وهو كحب الخردان يصنع منه الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبياء". وفى سنغاى عصيدة تصنع من شئ شبه القلقاس وهى عندهم مفضلة على سائر الطعام".

ويـبدو أن السـنغائيون يقدمون لضيوفهم الخبز ولحم البقر بالغرتى واللبن الرائب. أما مدينة كوكو فتتميز بكثرة الأرز والدجاج والسمك "وبها الفقوص العنانى الذى لا نظير له" وفى أحد البلدان بين تنبكت وكوكو يصنعون مشروباً يسمى الذقنو وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوطاً بيسير عسل أو لبن ، وهم يشربونه عوض الماء لأنهـم إن شـربوا الماء خالصاً أضر بهم ، وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن(١٤٣).

ومـن الخصـائص البارزة للمطبخ السنغائى فى تنبكت وجاو وجنى وأقدز وزندر وطاو فى القرن السادس عشر الميلادى استعمال الزبدة والتوابل والاستهلاك الواسع للسمك وتفضيل الأرز على أية أطباق أخرى.

والواقـع أن هذه الخصائص مست السواد الأعظم من السكان أما الطبقات المـترفة فى المدن فلا تأكل السمك بل استعاضت عنه بلحوم الغنم والبقر والجمال والدجـاج والحمـام ولـم يدخـل الأرز إلى مطابخها إلا شكل ثانوى حيث أصبح الكسكسى المتخذ من القمح والشعير والذرة الأكلة المفضلة والرئيسية على الموائد(١٤٤).

وينقسم طعامهم إلى قسمين :

طعـام الملـــوك

يتكون طعامهم من الكسكسى أو الفتات عليه لحم الغنم المطبوخ أو المشوى أو الملفــوف فى شرائح من العجين المتناهى الدقة ومعه أصناف من الأطعمة منها دقيق القمح الذى كان يحمله جنكى خديم أسكيا الحاج محمد له.

ومن حفاوة كرم الطبقة الحاكمة أن ضيوفهم يتناولون معهم الغذاء ولو كانوا صـغارا فى السن وهذا الحسن الوزان لم يتجاوز عمره ست عشرة سنة دعاه ملك تنبكت لتناول وجبه العشاء والفطور معه دليلا على الحفاوة التى يكنها له(١٤٥).

ولكن نحن نرصد هذه العادة من خلال رحلة ريتشارد جونسون التى قام بها عـام ١٠٢٨هـــ/١٦١٨م فـى نهر غمبيا حيث ذكر أن وجبة العشاء هى الوجبة

الرئيســية يتناولونها عادة بعد الغروب ، ينضجون طعامهم فى نيران يشعلونها فى بعض البوص فى الهواء الطلق ويتحلقون حولها ، وتقوم النسوة بغرف الطعام لهم فــى أوان وتقديمه لهم ساخنا ، وغالب طعامهم أرز أو بعض الحبوب بعد سلقها ، فــإذا مــا أتاهم الطعام تناولوه بأيديهم بأن يأخذ الواحد منهم فى كفه بعض الطعام ويعجنه ليصبح كهيأة الكره ثم يقذف بها إلى فمه فتلك طريقة أكلهم(١٤٦).

طعام عامة الناس :

يختلف غذاء عامة الناس من منطقة لأخرى ، ولو أن الاختلاف طفيف فهو ينقســم إلى شقين : الأول يتمثل فى الأرز والذرة والدخن وتوجد فى تادمكه وكذلك الكسكسى(١٤٧) ووجبة الكما التى تطبخ مع لحم الإبل والثانى يتكون من العسل ولبن المواشــى بمافــيها الإبــل ودقيق الكوهمنى والمتكون من حبات القصب وهو يدق ويخلــط بالماء ويشرب وخاصة فى أوقات الحر(١٤٨). والثالث يتمثل فى لحم الغنم والماعــز والبقر والابل والغزلان ولحوم الحيتان الطرية والطيور بمختلف أنواعها فهى تمثل الغذاء الرئيسى للسكان(١٤٩).

وفى بعض مناطق السودان الغربى فى بلدة تيرقى فإن سكانها يأكلون لحم الســلاحف الــتى تعظم عندهم ولهم طريقة فى الحصول عليها بأن يشدوها بحبال ويجرونها من حجرها(١٥٠).

أما أهل نيسر فتكثر عندهم أفاع طويلة وغليظة يقطعون رأسها ويطبخونها بالملح والماء والشيح ويأكلونها وهى عندهم من أطيب الأطعمة(١٥١) وهو يستخدمون الشيح عند طبخ الأفاعى بغرض إزالة سم الأفعى(١٥٢).

وتســتعمل المــرأة السنغائية أوانى القرع الكبيرة فى حفظ العسل والحساء الساخن والدقيق ؛ كما استعملت القدور والأقداح المصنوعة من النحاس أو الفخار، كمــا استعملوا الدلو المصنوع من جلد البقر والإبل والماعز بعد دبغه فى استخراج الماء من الآبار(١٥٣).

وقــد ذكر أن أفضل نساء السودان الغربى فى الطبخ نساء أودغشت فلهن مهــارة فاقــت نظيراتهن وخاصة إعدادهن للحلويات مثل الجوزنيقات والوزينجات والقاهريات والكنافات والقطائف والمشهورات وأصناف الحلاوات(١٥٤) وإلى جانب

هذه الأنواع المستوردة كانت هناك أنواع من الحلويات السودانية مثل مايطلق عليها السقية المعروفة باسم (ديميتا) وشكلها مستدير وتحضر بالفول السوداني ودقيق الأرز والتوابل والعسل(١٥٥).

يتضح أن هذه الحلويات جاءت للمنطقة من الشمال الأفريقي ومن الأندلس ومن مصر فالقاهريات اشتقت تسميتها من القاهرة والكنافات والقطائف إلى اليوم تصنع فى المغرب.

وقد أدخل المغاربة تقليدا فيما يخص وجبات الطعام اليومية تمثل فى تناول طعام العشاء ، إذ كان أهل المدن قبل ذلك يشربون اللبن فى العشاء مع بعض الفطائر ولا يتناولون شيئا بعد ذلك أما فى الصباح فكانت بعض العائلات فى المدن تتناول الأطعمة الدسمة واللحوم والحساء وهذا التقليد الفاسى لم يعرف فى السابق بتلك البلاد(١٥٦).

أما أيام رمضان والأعياد فإنها تختص بأنواع معينة من الأطعمة ويقدم أغلبها على أساس الاستعمال الواسع ، ونجد تشابها كبيراً بين ذلك وما عرف عن السعديين من احتفال فى هذه المناسبات.

أما التنوع فى الأطعمة فإن الاثر المغربى يمكن أن نلمسه فى كل الأصناف، ولقد كان الكرم والاحتفاء بالضيوف من المميزات البارزة للعائلة السنغائية(١٥٧).

هكذا يتضح من هذا الوصف أن المرأة السنغائية كانت سيدة المطبخ السودانى فهى التى تقوم بعملية الطهى وهى التى أحتوت على اللحم والسمن والبهارات.، فقد ذكر كعت "فإذا هى مملوءة طعاما مطبوخاً بأنواع الأدام واللحم والسمن الكثير" ومطبخ لحم البقر ويسقى بسمن الغنم والماعز على السواء والأكلة المفضلة هنا هى وجبة الكسكسى بعد طحن القمح وخلطه بدقيق الحنطة ويسقى بالخضروات(١٥٨).

وأخيراً فقد وجدت بعض الأسرات التى تفضل أن تأكل لحم الأسماك المتوافرة من نهر النيجر(١٥٩).

الزى والملبس لدى العائلة السنغائية :

لا يختلف الزى عما هو موجود منذ عهد دولتى غانة ومالى عما هو فى مملكة سنغاى وباقى المناطق ، إلا فى بعض التغيرات الطفيفة فالمورث الاجتماعى من الصعب أن يتغير من فترة لأخرى(١٦٠).

أما سلاطين سنغاى فقد تمثل ملبسهم فى كرازين تشبه العمامة يضعونها على رؤوسهم وما يؤكد ذلك عندما تولى أسكيا أسحق واستطاع ان يسيطر على البلاد ويلاحق ملوك أعدائه قبض على أحد معارضيه ببكر بن الفق دنك وعندما مثل بين يديه أراد إهانته فقال أسكيا اسحق لرجاله : "هاتو كرزى فجئ به فقال له خذه واستربه هذا الشيب السوء(١٦١)". كما ارتدى ملوك سنغاى السراويل والقميص السوسى الأخضر وأربعة قمصان وهو أصل لباس عندهم(١٦٢). ويتزينون بالذهب المرصع والدليل على ذلك أن كنى أحد أبناء ملوك سنغاى عندما خلع قلنسوته ليغتسل رأى الحاضرون ذهبا مرصعا فى رأسه فقيل لعله ابن ملك لأن تلك عادة أبناء الملوك(١٦٣).

أما حكام سنغاى فإنهم يرتدون القميص والمآزر وملوك زافون يلبسون أثوابا مزركشة ويتلفعون برداء أبيض(١٦٤).

أما حكام تادمكة فيرتدون الثياب الملونة وهى عبارة عن عمامة حمراء وقميص أصفر وسراويل زرقاء(١٦٥) أما عن زى وكلاء أعمال الطبقة الحاكمة فعبارة عن كورية وقميص أسود وقلنسوة حمراء وملحفة سوداء وخدامهم يتزينون بملف وند وبيدهم اليمنى سوار فضة(١٦٦).

أما زى الشرفاء والعامة وأبنائهم فإن لباسهم يختلف عن سابقيهم فهو عبارة عن جلاليب طويلة وعمائم ولهم شعر يصل إلى شحمة الاذان اقتداء بالرسول (ص)(١٦٧) ورجال أهل سنغاى يرتدون الملف والقميص والقفاطين المصنوعة من كتان (دب) والحرير والملف والقمصان والسراويل الكبيرة والعمائم كما يرتدون البرنس(١٦٨). وقد ذكر عبد الرحمن السعدى أن شيخ الإسلام الفقيه محمد بغيغ الونكرى خلع برنسه ووضعه على جثمان الفقيه على سل بن أبى بكر بن شهاب الولاتى التنبكتى(١٦٩).

الأذن

وتـرتدى النساء فى سنغاى الحلى المصنوعة من النحاس والخرز والنظم الزجاجـية (والـباذوق[١٧٠]) وأنواعاً من المجزعات الزجاجية[١٧١]. فبدأت النساء ترتديـن حلـى الذهب ، كما تحلت النساء بتطاريح من الذهب[١٧٢] على رؤوسهن وأسـوار ذهب وفضة فى معاصمهن[١٧٣] كما يرتدين الملحفة السوداء ومايدل على ذلك منح أسكيا داوود للعجوز التى اعتق أبناءها فى كل سنة ملحفة[١٧٤].

ومـن خلال عرض زى الرجال والنساء فى سنغاى يظهر تأثير مغربى ، وخاصة البرنس زى أهل المغرب والتطاريح والملاحف تأثير مغربى أيضاً.

فنساء مدينة جنى مثلا يتلثمن بلثام كبير من القطن مصبوغ باللون الأزرق أو الأسود يغطين به رؤوسهن، وبعض من فتياتهن الأبكار لا يسترن عوراتهن[١٧٥].

أمـا نسـاء مدينة تنبكت فمتحجبات متلثمات باستثناء الايماء اللائى يبعن الأكل، وكذلك نساء مدينة ولاته متلثمات[١٧٦].

وأهـل ونقارة يرتدون الأزر والأكسية والقداوير وكذلك قرية عزبيل التى تتـبع ونقـارة فلـباس أهلها الصوف ، وأهل سن والتكرور لباس عامتهم قداوير الصوف وعلى رؤوسهم كرازين الصوف ولباس خاصتهم ثياب القطن والمآزر[١٧٧]. أما أهل زغاوة فإنهم يرتدون جلود الإبل والبقر المدبوغة ، وأهل سامة المعرفون بالبكم يمشون عراة إلا المرأة فهى تستر فرجها بسيور مظفورة[١٧٨].

أما النساء فمن ضمن ما يتزين به حلى يعلق فى أنوفهن من الذهب العين، وفى عهد الملك دا بن منسو استحدث عادة اجتماعية وهى ثقب انف المرأة ووضع قـرط من الذهب العين ، مكان الخزام والذى يقوم بثقب الأنف الحدادون ويعرفون بحدادى نم أى المختص فى ثقب الأنف[١٧٩].

أمـا زى أهل تادمكة التى عامة أهلها من العرب المغاربة المسلمين فثياب قطنـية مصـبوغة ، بالإضـافة إلـى النقاب الذى يبدو أنه وفد عليهم من الشمال الأفريقى[١٨٠].

أمـا عـن زى قـبائل الفلان فإن أهلها يرتدون دراريع مفتوحة من الامام وحـذاء مصـنوعا من جلد البقر والإبل ، ويضفر رجالهم ونساؤهم شعرهم على السواء ويتزينون بالحلى والسيوف والحراب[١٨١].

وفـــى سنغاى تحجبت النساء ، إذا خرجن فى الطرقات باستثناء الجوارى ، وقد تشدد أسكيا الكبير فى فرض الحجاب والتقيد بالشريعة وأمر بعدم الاختلاط بين الجنسين إذ يعاقب المخالفين(١٨٢).

أمـــا قـبائل الطـــوراق فـــإن لباسهم الدراريع واللثام ويتزينون بالسيوف والحـــراب أيضـــاً وأما قبيلة الهكار فيرتدون معاطف الجلد فى الشتاء ومعها اللثام الـــذى لا يـــتخلون عـــنه طيلة السنة ، وأهل كاو كاو يسيرون حفاة فى الصيف لا يـــرتدون أى لـــباس غير شبه سروال من الجلد يستر عورتهم ، وتجارهم يلبسون القداوير والأكسية ، وعلى رؤوسهم الكرازى ويلبسون الأزر ويتحلون بالحلى وأهل كـــاغو. فطبقة الفلاحين ترتدى جلود النعام فى الشتاء أما فى الصيف فتمشى عارية غير أنهم يسترون عوراتهم بمئزر صغير وينتعلون أحيانا بنعال مصنوع من جلد الإبل(١٨٣).

قص شعور أهل سنغاى : فلهم فى ذلك عدة طرق وهى :

- **كوربو توريرى** : تظهر فى شكل خصلة ترتفع من أعلى الرأس فى الهواء مع خصـــلتين تتدلـــيان علـــى الخدين وثالثة على العنق واستعملت بعض أنواع الدهون وخاصة الزبدة فى تليين الشعر(١٨٤).
- **ديكوتـــى** : أى أن يترك الحلاق خصلة صغيرة فى رأس الصبى ويتولى جدلها فى كل حلاقة.
- **الـــدازى** : وهـــى عـــبارة عن ديكوتى مع وجود الخصلة فى مؤخرة الرأس ، وأخذها شكل زينة الطربوش ، وكانت حلاقة الدازى تميز أبناء الشرفاء(١٨٥).
- **الماتكا** : يصنعون خصلة فوق الأذن يتميز بها أبناء العبيد.
- **البونـــو** : يحلق نصف الشعر ويترك النصف الأخر بدون حلاقة.
- **السـيويـــو** : وهى حلاقة الشعر مافوق الأذن مع ظفيرة واحدة صغيرة مشدودة بخيط من وبر الإبل.
- **وديـــن دييـــتى** : وهـــى أن يحلق الشعر ويترك وسط الرأس على هيئة ثلاث كورات(١٨٦).

ولعـــل من أطرف مايمكن أن يراه الانسان فى مدن السودان شعر الأطفال والنســـاء بعـــد تصـــفيفه أو حلاقته ، فالنساء المغربيات أو التواركيات كن يرسلن

ضفائر على جوانب الرأس أو يجدلنها على هيأة جدائل صغيرة منسقة حول العنق والصدغين ، وتحاط بالحلى وتشد بالخيوط المناسبة للون الشعر ، والنساء الزنجيات من ذوات الشعر الأجعد القصير كن يتخذن أشكالا أكثر تعقيدا ، ويمكن ذكر ثلاثة أنواع في مضمار تصفيف شعر الزنجيات وهى اليويو : ودين دييني ، وكور بوتوريري[١٨٧]. وقد أدخل البربر ثم العرب حرفة الحلاقة إلى السودان ، وجميع الأساليب التى اتخذت فى تلك الصنعة ، وكذلك الآلات كانت كلها عربية، وكما حدث فى المغرب فقد كان الأساس فى معالجة شعر الرأس هو قص الشعر كله ، غير أنه فى أحوال أخرى كانت تترك بعض أجزاء غير حليقة وتراوحت هذه الأجزاء بين نقطة واحدة فى أحد جانبى الرأس أو وسطه وبين أن يترك نصف شعر الرأس بدون حلاقة وهذه الأشكال لا علاقة لها بمقام الطفل بقدر ما كانت متصلة بالسن[١٨٨].

الأعياد والاحتفالات التى حرص عليها أفراد العائلة السنغائية هى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى شهر ربيع الأول من كل عام ، حيث يقوم المداحون بعد صلاة العشاء بمدح النبى (ص) ، فعندما أحتل المراكشيون سنغاى استمر الاحتفال لكنهم أمروا فى عام (١٠١٨هـ/١٦٠٩م) بأن يكون المديح بعد صلاة المغرب ، هذا بجانب الأعياد الإسلامية الكبرى مثل الفطر والحج ، كما أن شهر ذى القعدة يعتبر راحة عند أهل سنغاى فى كل عام[١٨٩].

وعندما يقبل شهر رمضان فإن الأهالى يستعدون له بشتى أصناف الأطعمة والحلوى ، ويكثرون من العبادة وفعل الخير ، والتردد على المساجد لأداء الصلاة فى أوقاتها . ويكثرون من تلاوة القرآن الكريم وقراءة الشفاء للقاضى عياض ، وخاصة فى مدينة تنبكت ، وجنى وجاو واقدز فى بلدة لنجوم برض كيال فإن اهالى هذه المدينة يحتفلون بليلة القدر بتلاوة القرآن الكريم ، وكثرة الدعاء ، ويأمر حاكم المدينة بطبخ الطعام وتوزيعه على حفظة القرآن الكريم وصبيان الكتاب وعامة الناس احتفالا بهذه الليلة المباركة[١٩٠].

قال كعت إذا كان ليلة القدر يأمر بعض كبار العائلات بطبخ الطعام ثم يحمل المطبوخ فى المائدة أى القدح الكبير ويحملها فوق رأسه ، وينادى قراء

القرآن وصبيان المكتب ويأكلونها والقدح على رأسه وهو قاعد وهم قائمون يأكلون تعظـيما لــه[١٩١]. أما الاعتكاف فى العشرة الأواخر من شهر رمضان فكان بكل مسجد[١٩٢].

أما احتفالهم بليلة عيد الفطر فيتم بمجرد رؤية الأهالى الهلال فيقصد العدول مــن الــرجال إلى المشور للإدلاء بشهاداتهم ، فتهتز المدن وخاصة مدينة تنبكت بالتهــليل والتكبــير ، وزغاريد النساء تعبيراً عن فرحتهم ، وفى صباح يوم العيد يــنطلق الرجال إلى المصلى ليؤدوا صلاة العيد وبعد الانتهاء من الصلاة يتصافح المصلون ويتزاورون ويتصدقون على الفقراء ابتهاجا بهذا اليوم[١٩٣].

الاحتفال بعيد الأضحى :

تطلق المدافع ليلة عيد الأضحى من أبراج قصبة تنبكت ويقوم الناس بأداء الصــلاة فــى المسجد الجامع بحضور الملك والحاشية ، وتذبح الأضاحى ، وتقام ألعاب الفروسية وتصدح الموسيقى فى الطرقات ويخرج الناس لمشاهدة تلك الألعاب بملابسهم الجديدة[١٩٤].

وهناك موضع فى مدينة تنبكت بجوار جامع سنكرى يعظمه الأهالى كثيراً يمدحون فيه الرسول (ص) وسبب التعظيم أن أحد الصالحين رأى الرسول (صلعم) فــى المنام على ناقته فى هذا الموضع ، كما كانت لهم احتفالات دينية أخرى مثل الاحــتفال بأول السنة الهجرية وعاشوراء ، وختم القرآن الكريم فى الجامع الكبير، وعند مرور أربعين يوما على وفاة أحد العلماء أو كبار القوم[١٩٥].

ومن الاحتفالات الاجتماعية الأخرى العقيقة والختان ، وختم جزء الرحمن، وخــتم القرآن والاحتفالات الجماعية بمناسبة خروج الركب السودانى للحج ، وكان مــن السنن الذى اقتفى الباشوات آثر أحمد المنصور فيها ختان أطفال الضعفاء فى حفل عمومى وبعد الاحتفال ينال كل طفل قطعة من الثوب وحصة من اللحم[١٩٦].

وكانت هناك أيضا الاحتفالات بيوم عاشوراء وهو يوم مشهور فى تنبكت ، وتقدم فيه الحلوى والأطعمة للفقراء والمساكين وكذلك للأهل والأصدقاء[١٩٧].

ممارسة الطقوس التقليدية لدى العائلة السنغائية

لقد كانت كل جماعة من القبائل السنغائية تعتقد فى عدة قوى فمنهم من عبد الشمس ومنهم من عبد الحيوانات والأسماك والدكاكير[١٩٨].

وقد أورد صاحب الجواهر الحسان ، وعبد الرحمن السعدى أن أهل سنغاى قبل وصول زاء الأيمن ، كانوا يعبدون سمكا ، يظهر لهم فوق الماء فى النهر، فيجتمعون إليه ويعبدونه حيث يخيل لهم أنه يأمرهم ويمتثلون لأوامره ، وينهاهم عن أمور فينتهون عنها إلا أن زاء الايمن رفض ذلك الأمر وقتل ذلك السمك وخلص البلاد من الشرك والرعب الذى كان يسيطر عليهم[١٩٩].

وفى مدينة زافقوا إحدى مدن السودان الغربى يعبد الأهالى حية كالثعبان ذات عرف وذنب رأسها كبير تدخل إلى مغارة واذا خرجت من مسكنها يقدم لها أهل زافقوا أصناف الطعام والشراب من عسل ولبن وإذا أرادوا خروجها أطلقوا صغيراً وتمتهوا بكلمات فتخرج إليهم[٢٠٠]. ان ما أورده البكرى عن عادة أهل زافقوا يدل على تخلف فكرى واضح في الاعتقاد بالاساطير[٢٠١].

وفى بلدة التكرور ، كان الناس يعبدون الدكاكير ويقدمون لها الولائم إلى أن ولى عليهم وارجابى بن رابيس وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها إلى ان توفى سنة اثنتين وثلاثين واربعمائة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م[٢٠٢].

ولقد أورد البكرى أن أماكن التعبد كانت بعيدة عن المدن أما فى مفازة حيث تقدم الطقوس الدينية الجماعية أما فى غابة منعزلة باشراف الكهنة ورجال الدين فقد أورد فى هذا الخصوص قائلا وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها وسحرتهم وهو الذين يقيمون دينهم"[٢٠٣].

لقد كان الطوطم يمثل رابطة اجتماعية مهمة بحيث أن العشيرة الواحدة تشترك فى طوطم واحد. فمنهم من كان طوطمه عبادة الدكاكير أو الأصنام ومنهم من قدس الطبيعة فقد عبد بعض الوثنيين الأرض. وكان لها شيخ مهمته حل كافة المشاكل التى قد تحدث حول ملكية الأرض وكانت تقدم لها القرابين فى فترة الزرع والحصاد تقربا منها واستعطافا لها بالإضافة إلى روح الخوف التى تسيطر عليهم[٢٠٤].

صغيراً

أمـــا قـــبائل المـــاندى فكان طوطمها تقديسها للحياة فكان نهر النيجر محلا للتقديس عندهم، إذ كانوا يقدمون له القرابين التى تمثلت فى الأضاحى تقربا له(٢٠٥).

كمـــا أن قـــبائل الديـــولا كـــان طوطمها المطر ويعتبر عندهم رمز للخير والسعادة لأن القوى الخفية بالمطر تسعدهم (٢٠٦).

أما قبائل البمبارة والدوجون فطوطمهم أن الحيوان توأم الانسان ، وكل جد من أجدادهم يقابله حيوان عادى(٢٠٧). أما الدموم إحدى مناطق السودان كان أهاليها يعـــبدون صـــنما على صورة امرأة فوق قلعة ويشدون إليها الرحال ، وفى بعض المناطق يتبرك الاهالى بشجرة القطن ، ويزرع كل واحد شجرة قطن فى بيته(٢٠٨).

وقـــد أكـــد عبد الرحمن السعدى أن الديانة الوثنية كانت متأصلة فى نفس الســـلطان موشـــى واتباعه الذين اصطدموا مع ملك سنغاى من أجل الديانة الوثنية وهو ماكان يمثل صراع فى الثقافات حتى فى ظل الإسلام(٢٠٩).

ومـــن أسس الوثنية تقديم الأضاحى ، فقد أورد البكرى عن ديانة أهل غانة بأنهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لها الخمور ، وإذا مات ملكهم عقدوا له قبه ووضـــعوها فـــى موضـــع قبره ووضعوا معه حليته وسلاحه وأدخلوا معه رجالا وأغلقـــوا علـــيهم باب القبة(٢١٠). وهذا ماكان يعرف بالقتل الطقسى فقد مارسه أهل الفونج فى بلاد النوبة. وقد سبقهم إليه الفراعنة حيث وضع أمتعه وطعام ملوكهم فى مقابرهم هو تأكيد على الحياة بعد الموت وعلى أن أرواح ملوكهم سوف تدافع عنهم وتجلب لهم المطر(٢١١).

وقد أشار عبدالرحمن السعدى إلى بعض القبائل الوثنية من تينى بلد فى حد أرض سلطان كاير إلى وراء جبال تنبلا قبيلة من قبائل المجو سين كثيرا جدا(٢١٢).

وقد انتشر بين العديد من الأسر السودانية الاشتغال بالسحر والكهانة للتنبؤ بمـــا ســـيحدث ولدفـــع الكوارث والأخطار ومداواة المرضى وللحفاظ على القوى الحـــيويـــة ويحدثـــنـــا الـــرحالـــة بارك أنـــه وجد الثياب التكرية للممبو جبمبو Mumbo Jumbo وهـــو بمثابة بعبع Bugbear موجود فى مداخل كل مدن الماندنجو ويستخدمه كل الوثنيين من أهل البلاد لضمان تعلق نسائهم بهم(٢١٣).

الموسيقى والغنـــاء

بــرع المجــتمع الســنغائى فى فن الغناء ؛ فالنساء عزفن على آلات منها المــزمار والعــود والدفوف ؛ فبنات أسكيا الحاج محمد فرض عليهن السلطان أن يغنين له وهن كاشفات الرؤوس ومصحوبات بآلات الطرب[٢١٤].

والجديــر بالذكر أن فن الغناء كان يختص به بعض القبائل ، فقبيلة المابى فــى تنبكــت وجــاو هــى التى امتهنت هذه المهنة بالدرجة الأولى وتتكسب منها بالحصول على الهدايا[٢١٥].

ومــن الآلات الموســيقية التى عرفت فى سنغاى آلة تسمى فترفو ، وتشبه البوق وآلة تسمى كتبدا وهى نوع من الطبول ، وتقول الرواية أن أسكيا محمد بان بن داود ت ٩٩٦هــ/١٥٨٧م هو الذى أدخل فترفو لأول مرة ، وكان معروفاً عند سلطان أير Air كما أن محمد بان هذا أول من مشى بالدفوف فى مملكته[٢١٦].

والمعــروف عن أهل تنبكت حبهم للمرح ، فيقضون جزءا كبيرا من الليل فى الغناء والرقص فى كل شوارع المدينة[٢١٧].

ومن العادات المتعارف عليها فى أيام الأعياد والمناسبات الدينية أن الناس فى ليلة العيد يطيلون السهر ويقضون الوقت فى الغناء والطرب والموسيقى ودقات الطبول[٢١٨].

وقــد عرفت الأسرة السنغائية استعمال العديد من الآلات فى الموسيقى مثل الغــيطة Shawn والغوغة وهى كمنجة ذات وتر واحد ، بالإضافة إلى أنواع معينة مــن الطــبول ، وانتشر بينهم استعمال بعض المصطلحات الموسيقية العربية مثل الصنج Cymbal والشبابة Flute [٢١٩].

وهــنا يطرح السؤال لماذا كانت البيئة الأفريقية من أنشط البيئات وأكثرها انتشــاراً لفــن الغــناء والــرقص والشعر ؟ لأن الرجل الأفريقى ميال إلى الغناء والرقص ، فالبيئة الصحراوية تنتج الإبداع الفكرى من الفلكور الغنائي.

– وسائل التسلية والفنون

أدوات

كانت التسلية التى انتشرت بين العائلات السنغائية هى وجود القصاص حتى وأن هيمن على قصصهم الخيال ، فقد روى أن الفقيه صالح بن الفقيه إبراهيم عندما

كان يأتي لمسجد سنكرى ينشق له جدار المسجد ويدخل الجدار ويتعبد فيه ، وتراب روضته نافع لوجع الضرس إذا وضع عليه ، وكذلك قصة الغول(٢٢٠).

وبالرغم من أن هذه القصة من نسج الخيال إلا أنها تعبر عن أدب القصة ، فمـــازال يـــتواجد فـــى أسواق تنبكت وجنى وجاو وأقدز وكنى ، وأكثر رواد هذه الحلقـــات النســـاء فـــى الاعتقاد بوجود الكرامات ولكن كل هذا يدخل فى استخدام الشعوذة من التسلية إلى الضرر بالعباد فقد أورد كعت أن أحد الشيوخ فى عهد دولة سنغاى زمن السلطان أسكيا محمد بأن اجار وكيل السلطان عليه بضربه ، فاستخدم الشيخ ضدد السحر بقصد الانتقام منه ، بأن كتب فى قماش أسود كتابة وعلقها على عنق تيس (ذكر الماعز) وضربه الرمح فمات ذلك التيس ، ووافق ذلك اليوم موت وكيل السلطان على ميناء كبر المكان الذى تعرض فيه الشيخ للضرب(٢٢١).

وقـــد ذكر المغيلى فى أسئلته لأسكيا الحاج محمد عن هذه المسألة أن هناك مـــن يدعى أنه يعلم الغيب باستخدام خط الرمل ونحوه ، ومنهم من يترصد مواقع الـــنجوم ويترجم وضعها فى ذلك المكان إلى حوادث معينة ستحدث والبعض الآخر يترجم أصوات الطيور إلى أشياء معينة(٢٢٢).

ومن وسائل التسلية التى مارستها العائلة السنغائية لعبة الشطرنج حيث أورد الســـعدى أن الأسرة الموسره كانوا يقضون وقتهم فى هذه اللعبة(٢٢٣) ، أما الأطفال فكـــانوا يتســـلون بألعـــابهم الشعبية فى الليل وقد أورد السعدى لعبة كان يمارسها الأطفـــال إلا أنه لم يفصح عنها بقوله : "فخالف على المصطفى وعزله فكان اسكيا ولم يمكث فيها إلا قليلا فسمع فى ليلة واحدة أصوات الأطفال يلعبون فظن أن أهل سنغاى هم الذين خالفوا عليه فخرج وهرب(٢٢٤)، وعلى ما أظن أن هذه اللعبة يعنى بهـــا السعدى لعبة حلت وهى أن الأطفال يربطون عينى أحدهم وتبقى أعين الباقى مفتوحة ثم يطلقون أصواتا من عدة جهات والطفل المربوطة عيناه يحاول أن يمسك بأحدهم.

ومـــن أدوات التسلية التى استخدمها أهل سنغاى القردة التى تقوم بحركات غريبة أمام الناس وهذا ما أفاده الشيخ عبد الرحمن بن عمر التواتى فى فهرسه(٢٢٥).

أمـــا عن الفنون والزينة التى مارستها الأسرة السنغائية والتى تركت الأثر العمـــيق فى اعتباره فنا هادفا ، إذ أنهم بإبداعهم الفنى تم توفير سلع الترف للبلاط الســنغائي ، بالإضـــافة إلى هدف دينى واجتماعى ، وقد برعوا فى أشغال البرونز والـــنحاس والعاج والفضة ، وكان لأشغال البرونز وظيفتان : أولهما توفير الأشياء اللازمـــة للأســرات الحاكمة والطبقة المترفة ، والثانى تصوير تاريخ الشعب فهذه الصور والتماثيل تعرض الجوانب المختلفة لتطور المجتمع ؛ ويمكن أن نلمس طابع الـــبلاط فى الفنون من حقيقة أن رؤساء مختلف الطبقات الحرفية كانوا أعضاء فى البلاط الملكى. والطابع الاجتماعى للفن السنغائى يبرز بوضوح فى أقنعتهم ؛ فهذه الأقـــنعة كمـــا يشير هولاس هى التشخيص للدستور الاخلاقى الأداة الدائمة الموكل إليها المحافظة على تقاليد القبيلة وأعراقها(٢٢٦).

ولاشـــك أن سكان مدن السودان كانوا أكثر من سكان أى بلد اسلامى تعلقا بالزيـــنة وجمال المظهر فقد استعمل الرجال الخواتم وعلقوا السلاسل والتمائم على أعـــناقهم وتقلدوا الأسلحة والخناجر ، وتطيبوا بالعطور الزيتية والعشبية التى كانوا يحـــرقون أنواعا مستوردة منها كالعود أو محلية كالعنبر وقلدوا المغاربة فى اتخاذ أوانى البخور ومواقده وقوارير الزهر والورد(٢٢٧).

أمـــا النســـاء فكن يعمدن إلى وضع الأصباع على وجوههن ولبس القلائد والأحجـــار الكريمة والزجاجية والأساور والخلاخل والأقراط التى كانت تتدلى من الشعور أو من الأنوف(٢٢٨).

ثالثاً : المرأة السنغائية ودورها الاجتماعى

تمتعت المرأة السنغائية بحرية واسعة فى محيط العائلة السنغائية. فالفلاحات كـــن يعملـــن بالحقل مع أزواجهن كما كن يقمن بايصال الغذاء للحقل خلال النهار مهما كان الحقل بعيداً عن المنزل(٢٢٩).

وبعض النساء كن يتاجرن بالسوق ، ويبعن الأغذية والألبسة والمجوهرات(٢٣٠).

أما علاقات النساء بالرجال فلا يبدو أنها تأثرت كثيراً لدى العامة بالإسلام، ولـــذا كانـــت معاشـــرة غير الحرائم منتشرة بكثرة فى المجتمع ، وكان لكثير من الـــرجال خلـــيلات يتسرون بهن ، كما كان لكثير من النساء أخلاء كذلك(٢٣١) ، إذ

يشير السعدى ومحمود كعت أن أفراد العائلة المالكة لم يكونوا يتحررون كثيراً فى نكاح من تروق لهم من بين أخواتهم وقريباتهم وخاصة فى عهودهم المتأخرة وحيث أصبحت عادة اللواط منتشرة بشكل مروع وخاصة بين أفراد الحاشية وكبار الموظفين(٢٣٢).

وقد أشار رتشارد جوبسون Richard Jobson (١٠٢٨هـ/١٦١٨م) عن أحوال نسائهم ، وعن تعدد الزوجات وخضوعهن التام الذى يدعوا للعجب لأزواجهن ، فالملك له الحق فى اقتناء سبع نساء يطلق عليهن اسم زوجات ، كما أن له الحق فى اقتناء نساء أخريات يمكن أن يطلق عليهم ما نسميه بالمحظيات أو الخليلات ، وتختلف الزوجات عن المحظيات فى انهن أى الزوجات تحظين باحترام أكثر ويتم التعامل معن من خلال طقوس ، ولكل واحدة منهن لقب معروف هو زوجة الملك ، ولايجوز للملك أن يزيد فى عددهن عن سبع ، أما المحظيات فهن أدنى درجة لانهن من أصول أقل عراقة.

وهن أيضا مرتبطات بالملك ويعتبرن من حريمه لكن ليس بالدرجة نفسها من الصرامة التى ترتبط بها الزوجات فالملك لا يضاجع احدى المحظيات إلا عند الضرورة(٢٣٣).

وفيما يتعلق بطهارة الزوجة وعفتها فإن شرائعهم حسب اشارة جوبسون غاية فى القسوة ، فإذا حدث أن ضبطت زوجة تزنى ثم تأثيمها (الرجل والمرأة) ويبيعها دون إتاحة فرصة التوبة لهما لكنهم لا يقتلانهما ، ويباعوا فى أسواق العبيد(٢٣٤).

وما يشير له جوبسون فى حالة وفاة الزوج يمكن للزوجة شراء زوج آخر، فالمرأة المطلقة لاتستطيع الحصول على زوج إلا إذا اشترته ، أما البكر فالرجل هو الذى يدفع لها فالمطلقة تشترى _بفتح التاء) والبكر تشترى (بضم التاء) (٢٣٥).

ومعظم الأعباء تقع على المرأة من أعمال الطهى والطعام ويقمن بعمل النسيج ، ولا يسمح لهن بالجلوس مع الرجال لتناول الطعام معهم ، وقد أشار جوبسون أنه أثناء تناول الطعام مع الملك كان هناك زوجة أثيرة بمعنى أنها مفضلة عن الزوجات الأخريات ، فإنه يسمح لها بأن تكون قريبة من الزوج وان تدرى عن

أمـــوره أكثر من الأخريات ، وتتمتع هذه الزوجة بقدر أكبر من الحرية ويسمح لها بقبول الهدايا التى تقدمها[٢٣٦].

ومن عادات أهل سنغاى فى جمع الزوج بأكثر من زوجة ان يقمن فى بيت واحد دون أن يحدث بينهن عراك أو يتبادلن السباب[٢٣٧].

فمـــع الإسلام فى سنغاى لم يكن هناك التزام بتطبيق الشريعة وهو ما أكده إبراهيم باغو من أن رجلا واحدا من قبيلة كف نبر (افرنطك) كان له ألف وسبعمائة ابـــن ، كذلك السلطان اسكيا الحاج محمد كان له مائة ولد خلاف البنات وهذا أمر مســتبعد لأنـــه لا يمكن أن يكون كل هذا العدد من أربع نسوة ، مالم يكن من أكثر وهـــذا ما أورده محمود كعت على لسان السيوطى حيث قال : وقال له الشيخ ولك أبـــناء كثـــير نحو مائة رجل كلهم يتبعون أمرك فى دولتك ثم يعكسون الأمر بعدك والعياذ بالله حتى يصير الأمر ملكا عضوضا[٢٣٨].

ومـــن المعايـــير الـــتى لم يطبق فيها الإسلام فى الزواج فى بعض القبائل الســـنغائية أن الـــرجل المالنكى يتزوج ابنه أخيه وهذا ما فعلة مارنف صاحب أحد أفراد قبيلة المالنكين حينما تزوج ابنة أخيه جاج فولدت له ولدا يدعى فخحا وانجب الأخير ديما مخنجا وسندق مخنجا[٢٣٩].

كما أن لديهم عادات فى الزواج لا تمت للإسلام بصلة تضاف إلى رصيدهم المخالف للشريعة الإسلامية وهى الجمع بين الأختين (فام كلن) (وسلمان نارة) فقد أورد صاحب الجواهر الحسان ، وأما هما شقيقتان أما والده على كلن فاسمها (أما) واســم والـــدة سلمان نار (فت) وعندما مكثت فترة من الزمن لم تلد قالت لزوجها تـــتزوج أخـــتى لعلك تجد منها ولدا فتزوجها فحملت بقدرة الله معا فى ليلة واحدة وولدتا كذلك فى ليلة واحدة ولدين ذكرين[٢٤٠].

وكذلـــك المالنكـــيون لا يتزوجون من قبائل الفلان[٢٤١] ، وتختلف عادات الـــزواج من منطقة لأخرى، ففى مدينة جنى تتم طقوس الزواج بأن يخطب الرجل المـــرأة من وليها أو من ينوب عنها ويقدم العريس إلى عروسته صداقا يختلف من شـــخص لآخـــر حســـب القدرة فقد قدم على أبو جمعة الطرابلسى قاضى قندم إلى زوجـــته ابـــنه شـــيخ قندام المام أربع ايلات مهرا وقد يقدم المهر فى هيئة ذبيحة

وأصنافا من الحلى[٢٤٢] والأطعمة ويقدم أيضاً هدايا إلى أهلها وتزف بذلك العروس إلى زوجها على حصان مسرج ويستمر الفرح سبعة أيام يطعم فيه العريس ضيوفه ابتهاجا بهذا الحدث ، والإنفاق فى هذه المناسبة راجع إلى حالة العريس الاقتصادية ومكانـــته الاجتماعية. فالملك سنى على عندما خطب أم سلطان جنى من ابنها اقام فرحا استمر سبعة أيام انفق فيها على ضيوفه بسخاء وقدم لزوجته شتى أنواع الحلى ولأهلها أصنافا من الطعام وزفها على حصان مسروج واهداه بعد ذلك لابن زوجته سلطان جنى بجميع مستلزماته وقد أصبحت فيما بعد عادة عن أهل مدينة جنى[٢٤٣].

أمـــا الزواج فى مدينة تنبكت فله طقوس يغلب عليها الطابع الاسلامى فمن عـــاداتهم ان يـــتقدم العريس ويخطب محبوبته من أبيها فاذا وافق أكمل الفرح. وقد أفصح لنا ذلك العالم المصلى المغربى الذى أراد خطبة بنت الفقيه محمود[٢٤٤].

وتكاليف الفرح قد يساعد فيها السلطان إذا كان الطالب له جاه عنده وهذا ما فعلـــه الفع كعت صاحب تاريخ الفتاش وكان فى تلك الفترة يتولى أمر القضاء فى مديـــنة تنبكت فعندما أراد أن يتزوج أولاده الخمسة وبناته الأربع أرسل إلى أسكيا داوود مـــع كاتبه نكر لنبار يطلب منه أن يعينه على متطلبات الفرح قائلا : (فنادى الفع كعت) كاتبه لنبار فجاء فقال له أردت أن ابعثك إلى اسكى بحاجة لنا ، فقال أنا رسولك بلا شك فقال قل لاسكى انى محتاج قصدناه فإن لى أربع بنات وخمسة بنين ويدخل بهن أزواجهن ونطلب منه أربع زرابى[٢٤٥] ، وأربع إماء وأربع كلات وأن يعيـــنى فـــى جهازهن وأما البنون أريد لهم العمامة وأريد منه كسوة العام قميصين وعمامتيـــن وقلنســـوتين والدابتين فرسا (ورمكه عتيقه) ومزرعة وعبيدها وبذرها وأربعين حلابه .. ونريد منك ياأسكى الفع ان تخبره وتبلغه رسالتى[٢٤٦].

وكان من عادة ملوك سنغاى فى بعض الأحيان ان يتزوجوا من بنات الملك الـــذى يغزوه فقد تزوج أسكيا الحاج محمد بنت ملك كانو عندما غزاه ، وفى بعض الأحيان يزوج ملوك سنغاى بناتهم إلى كبار التجار والاثرياء ، حتى وإن لم يكونوا مـــن البيـــت الحاكم وقد زوج أسكيا الحاج محمد اثنتين من بناته لأخوين من كبار التجار.

نكر

يعينني

تحمل العروس التى تزف إلى ملوك سنغاى معها العبيد والإماء والأثاث والأمتعة وأدوات كلها من ذهب على هيئة صحائف وقلائد ومهراس (ومدق) [٢٤٧].

وقد عرفت نساء مدينة جاو بالجمال وقد وصفهم موسى بن أحمد السعدى قائلا أهل جاو معروفون بالجمال الفائق لا أعرف هل ورثوا ذلك من أهل مسل لاختلاطهم بهم أم غير ذلك[٢٤٨].

وقد كان يتم الزواج وفق الشريعة الإسلامية متمثلا فى العقد الشرعى والشهود والواقعتان اللتان يرجع تاريخهما إلى عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م تدلان على النظام المتبع فى نظام الزواج[٢٤٩].

أما عن المهر للعروس حسب المكانة الاجتماعية للعريس فالمهر عند الطبقة الموسرة عادة ما يكون من ستة إلى سبعة من الإبل مع أشياء أخرى مصاحبة للمهر متمثلة فى ملابس وحلى وعطر للعروس أما بقية الطبقات فإن مهر الفتاة رأسان من الماعز ونحوه[٢٥٠].

أما عن الاحتفال بالمولود وختانه فهو يختلف من طبقة إلى أخرى تقام فيها الوليمة ، وعادة يشتق اسمه من اسماء رجال العائلة المتوفين.

وبعد مضى أربعين يوما على ولادة المولود تحتفل الأسرة مرة أخرى بمولودها الجديد وخصوصا البكر وكان يعرف عندهم بيوم الأربعين وفى ليلة ذلك اليوم فإن أمه تخضب كفه بالحناء إن كان ذكرا وإن كانت أنثى تخضب يديها ورجليها وقبل ذلك تكون أمه قد احضرت الأشياء التالية لتزين بها ولدها[٢٥١].

وفى بعض القبائل السنغائية وخاصة السوننك والبمبارة فان عاداتهم تختلف إلى حد كبير عن باقى العادات السالفة الذكر فالسوننك والمبارة إذا جاءهم مولود فانهم ينسبونه إلى أمه فمنسا موسى ملك مالى يطلق عليه كنكا موسى أى أنه يدعى بأمه وأولاده جابق يطلق عليهم جابق فنجن ولد الخس مريم وهم على خس ومخى ومبى وخس[٢٥٢].

ويطلق على المولود اسم سمكة فى نهر النيجر تعرف عندهم بتحب ويطلق عليها الفلان سدر تطلق رائحة كريهة ولا يحمل المولود اسم السمكة إلا المرأة التى لا يعيش لها الأطفال[٢٥٣].

وتحـــتفل الأســـرة بيوم الختان بالعقيقة والاطعمة ثم تعطى الهدايا لأسرته ويختـــن الأولاد بعد نهاية الأسبوع الأول ومنهم من يختن طفله فى الأربعين ومنهم من يصل عمر ابنه إلى الخامسة والسادسة ، وعندما يختن الطفل يوضع العضو فى صفار البيض لكى يلتئم الجرح بسرعة.

وقد تتم عملية الختان فى شكل حفلة جماعية تضم العديد من أفراد العائلات الســـنغائية (٢٥٤). وعندما يموت أحد من أهل تنبكت خاصة من الأمراء أو الأسرة الحاكمـــة فى سنغاى ، فإنه يتم غسله وتكفينه ووضعه فى نعش ثم تتم الصلاة عليه أو يدفـــن إما فى مقبرة عامة أو خاصة حسب منزلة المتوفى ثم توزع الصدقات ، وكان أهل المتوفى يخصون الامام فى المسجد ثلاث قطع من القماش بيضاء اللون نظير الغسل والتكفين للمتوفي ، وقد قام السعدى بغسل أحد المتوفين وكان صديقا له عـــندما كان السعدى إماما فى تنبكت وقد اعطاه أهل المتوفى بعد الصلاة عليه فى المســـجد عمامـــة بيضاء وعبدين له . وكان لعائلة الأسكيين مقبرة خاصة بهم فى مديـــنة جاو العاصمة. أما باقي أفراد الشعب فكانت لهم مقبرة واحدة عامة فى كل مدينة وقرية.(٢٥٥)

أمـــا عـــن الـــدور التعليمى للصبية فى مجتمع سنغاى ، فمنذ بلوغ الصبى التميـــيز ، يبعث به إلى معلم القرآن فى الكتاب ليلقنه مبادئ القراءة الأولى للقرآن الكـــريم، وفرائض الدين الاسلامى ، وبعد ختم القرآن يندمج فى مجتمع الكبار عن طـــريق إقامـــة حفلـــة لتتويجه بعمامة خاصة . عوضاً عما كان متعارفا عليه فى المجتمعات الأفريقية القديمة ، حيث كانت تقام لليافع حفلة كانت تسمى "حفلة الدمج أو الإشـــراك" أى أن هذه الحفلة تقام لاطلاعه على أسرار طقوس ديانات الأجداد، ولعـــل هذه الفطرة الدينية التى فطر إليه الأفريقى عليها ، هى التى كان يشير إليه بعض الاجتماعيين فى قولهم أنه مامن نظام شاهد بين قبائل أفريقيا السوداء ، سواء أكان اجتماعيا أم سياسيا أم اقتصاديا إلا وهو مرتكز على فكرة دينية . والوثنية فى جميع بلاد السودان تلتقى عند أساس واحد ، هو شد الشعوب بالروابط الوثيقة التى تربط المجتمع بالبيئة الطبيعية وبالأجداد القدماء . وهذا واضح من فكرة إقامة حفلة الدمج المذكور آنفا "فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله". ولذلك لم

الله

إليها

يكن غريبا أن نرى هذا السوداني يسرع إلى تلبية نداء الاسلام بدون حرب أو إكراه، ومن ثم جاء دوره حاسما فى حمل لواء الثقافة والحضارة الاسلامية فى منطقة بلاد السودان الغربى(٢٥٦)

وكان لتأثير العمامة دور هام فى تشبع الحياة الاجتماعية بالمعانى الدينية السامية لما يضفيه لبسها على صاحبها من مكانة عالية واحترام من المجتمع ، فشاعت بين أولاد الشرفاء وكبار العلماء ، ثم جميع طبقات المجتمع بعد ذلك.

كان الشاب بعد تعميمه عضواً جديداً فى مجتمع الكبار يقدوم إلى علماء المدينة وأئمة مسجدى سنكورى وسيدى يحى بمدينة تنبكت ، وفى مسجد الحى الذى يسكنه ، حيث كان هؤلاء العلماء يضعون على رأسه ويباركونه عضوا بالغا فى المجتمع السنغائى . ويصبح بإمكانه الاشتراك فى جميع الأعمال الهامة فى المجتمع، كما يقطع صلته بماضيه السابق على إعلان بلوغه(٢٥٧)

رابعاً : البيت السودانى السنغانى (بنائه وتأثيثه)

تطور بناء المساكن فى سنغاى ، ففى بداية أمرهم كانوا يبنون منازلهم من أغصان الأشجار وجلود الإبل على هيئة خيام ثم تطور البناء فأصبح بالأحجار والطين والخشب العريض الطويل. فبنيت الدور ومقر الحكام والمساجد والمنارات العلمية(٢٥٨)

وكان البناء يختلف فى تطوره من مدينة إلى أخرى فمدينة أوغشت كانت مبانيها حسنة ومنازلها رفيعة مبنية بالطين. فقصر السلطان بناؤه جميل وله أبراج لمراقبة ما فى المدينة . وقد أكد ذلك صاحب الاستبصار فى قوله : "فدخل بلدة وأحرقها ، وقتل جنده والملك فى قصره ينظر إليه فلما رأى ماحل فى بلده هان عليه الموت(٢٥٩)

أما منازل أقدز فى بداية أمرها من أغصان الاشجار التى يضعون عليها الحصر، والجلود ونحوه ثم تطور البناء بالأحجار والطين ، وظهرت الهندسة المعمارية العربية فى البناء ، وظهر نظام الأقواس ، والنقش على الطراز الاسلامى فى مسجد الفزانى الذى شيد فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، إذ ظهر فيه الابداع الفنى(٢٦٠). ومدينة تنبكت تطورت فى فنون العمارة باستخدام

الأحجـــار والطيـــن ، وظهـــر الفن المعمارى المغربى متمثلا فى جامة سنكرى ، ومسجد منسى موسى ، ومقر السلطان وحى الغدامسية ، كما ازداد وجود التأثيرات المغربية مع وفود المغاربة إلى منطقة السودان الغربى[٢٦١].

كمـــا كانت العاصمة جاو حسب ملاحظات الحسن الوزان أدنى مرتبة من الناحـــية العمرانية عن تنبكت ، فهى فى الغالب تحتوى على مجموعة قرى متناثرة بدائـــية فى مبانيها ، كما كانت قصور الملوك والمساجد تمتاز باتساعها وبإحتوائها على عدة مداخل ونوافذ تحدوها استخدام الأقواس[٢٦٢].

وكانـــت أولـــى المنشـــآت العمرانـــية فى جاو وتنبكت ونيانى من تصميم وإشراف المهندس الأندلسى إبراهيم الساحلى والمعلم المغربى إدريس ، وقد وصف ابـــن بطوطة المساجد التى بناها الساحلى ، ووصف القصر الملكى فى نيانى الذى ضـــم قاعة مجلس السلطان التى انشائها على شاكلة قصور مراكش وغرناطة وقد رأى ابن بطوطة ذلك بنفسه سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٣م. وقلد السودانيون عندئذ ألوان الحضـــارة المغربـــية فى البناء وحاول كبار رجال الدولة والجند والأمراء تقليدها واســـتعانوا بمهندسين مغاربة فى تعليم صناع سودانيين وأخذ تقنيات النقش والحفر ووضع الشمسيات الزجاجية والكتابات بالخط الكوفى والفارسى[٢٦٣].

لقـــد جمعت بيوت تنبكت بين الفن المغربى الجنوبى والعادات الأندلسية فى بـــناء السقف وتزيين الساحات الداخلية وبين الطابع السودانى القديم. وكانت تبدو علـــى البيوت من الخارج صفة الاتساع مع التقليد غير المتقن لفن معمارى متقدم. وقـــد أعطـــت المساكن التى أختص بها كبار رجال الدولة المغاربة والتجار صفة العظمة لساكنيها فى هذا المحيط الاجتماعى[٢٦٤].

ويحـــدد طـــراز البيوت المواد التى تتوافر عند بنائها ، وقد كثر استعمال الطمى لوفرته ، والبيوت تبنى داخل مجمع كبير محاط بأسوار ، وتتخذ عادة أشكالا رباعـــية ، وتـــتكون بيوت عليه القوم من طابقين ، أما الأكواخ فهى مستديرة ذات جـــدران منخفضـــة وســـقف مخروطى ، والمبانى الأكبر مستديرة بدورانها وذات جـــدران رأســـية ، كما عرف نوع آخر هو البيت المستدير الذى يكتسب متانة من جدرانـــه المســـلوبة (علـــى شـــكل خيمة) وأبوابه المستنده إلى عمودين جانبيين ،

والغـــرف الواسعة التى لايمكن تسقيفها بشدة واحدة تقبى من الداخل بعقد زائف من الطيـــن يخفى الكوابيل الخشبية الحاملة ، وتطلى البيوت باللون الأبيض ، وتكتسب مظهـــرا صلبا أملس بفضل الشمس الاستوائية ، ويعاد طلاؤها بالطين كل سنتين. وتزيـــن جدرانهـــا وأبوابهـــا بالتماثيل ؛ ويضفى عليها النحت على الخشب رونقا وجمالا.

ولـــم يكـــن أهـــل السودان يجهلون فن البناء بالحجارة ، ومع ذلك لم تكن الحجارة تستخدم على نطاق واسع. من ذلك مايذكره البكرى من أنه فيما عدا القصر كانـــت البيوت الوحيدة التى تبنى بالحجارة هى بيوت التجار الأجانب ، وهى بيوت كبـــيرة الحجـــم محاطـــة بالحدائق. فعندما زار منسا موسى القاهرة عاد وبصحبته مجموعة كبيرة من المعماريين والحرفيين الذين انتشر على أيديهم البناء بالحجارة (٢٦٥)

ويذكر ديلافوس ولابوريه أن البيوت تبنى من الصخور الحمراء والطمى ، وعندما تكون البيوت من طابقين فإن قممها تبنى بالطمى مع تثبيت أحجار بداخلها، وقـــد قسما البيوت إلى نوعين ، مستطيلة الشكل ودائرية ، وتحيط جدرانها بمساحة تـــتراوح بين خمسين ومائة متر ، وتقسم إلى غرف مختلفة من بينها غرفة للمطبخ وأخـــرى تســـتخدم كمخزن ، وذلك فهى رحبة ومريحة ، فضلا عن أنها مزخرفة بعـــناية ، وبها نقوش وقباب وأروقة وأعمدة ذات تناسب قريب للغاية من مثيله فى أى مكان أخر (٢٦٦).

وقـــد ساد من قبل اعتقاد بأن هذه البيوت بناها البرتغاليون ولكن ديلافوس يؤكـــد أن ذلك لا يستند إلى حقائق ، فالبرتغاليون لم يعيشوا فى هذه المنطقة والمرة الوحـــيدة التى زاروا فيها المناطق الداخلية كانت مع السفارة التى جاءت إلى مالى ومنذ ذلك الحين لم يصلوا إلى هذه البلاد : وحتى إذا كانوا قد وصلوا إليها فقد كانت إقامتهم قصيرة للغاية لا تسمح لهم ببناء هذه البيوت الرحبة والمرتجة (٢٦٧)

كذلـــك لم تكن هذه البيوت معزولة عن بقية السودان الغربى ، ففى كومبى صـــالح أخرجت حفائر توماسى إلى النور بيوتا يمكن مقارنتها بتلك التى عثر عليها فـــى بلاد لابى ، فهذه البيوت كبيرة نسبيا ، طولها سبعة وعشرون مترا وعرضها خمســـة عشرة مترا ومقسمة إلى حجرات مختلفة ، الكبيرة منها طولها ثمانية أمتار

وعرضـــها خمســة أمتار . أما الصغيرة فطولها خمسة أمتار وعرضها متر وربع المتر، وجدرانها متينة يبلغ سمكها فى بعض الأماكن حوالى المتر ، وهى مبنية من كـتل الشست المغطاة بالملاط ، والسطح الداخلى للجدران مغطى بنوع من الجص الأصفر وغالبية البيوت ذات طابقين يربط بينهما سلم من الشست وبجدرانها فتحات مدسوسة ، ويذكر بارث أن قطر الموينيورو "صلب بديع الزخرفة" (٢٦٨)

ويؤكـد باوديتش بدوره أن السودان الغربى كان لديه بيوت جيدة ، وكتب عـن كوماسى على سبيل المثال يقول "ثمة آثار دهشتنى كثيراً – وإن لم يكن على الإطـلاق مـن أهـم الجوانب الكثيرة التى تقرر تفوقهم على عامة الزنوج ، هو اكتشــاف أن كل بيت له مجرور إلى جانب المجارير العامة للطبقات الدنيا خارج المدينة ، وهذا المجرور موجود تحت عقد صغير فى مكان ناء من المبنى ، ولكن لايـندر وجــوده فى الدور العلوى فى غرفة منفصلة على هيئة مرحاض ، وحيث العمـود المجوف الكبير يساعد أيضاً على دعم الدور العلوى ، فإن الفتحات تكون ذات محـيط صــغير . وإنما محفورة إلى عمق هائل ويصب فيها يوميا ماء مغلى يمـنع بصورة فعالة حدوث أى تأفف أو امتعاض وتحرق الفضلات والنفايات كل صباح فى خلف الشارع.

والأفريقــيون يحرصـــون علـــى الأناقــة والنظافة فى محال إقامتهم مثلما يحرصون على نظافة أبدانهم (٢٦٩)

ومــع ذلــك فإنه فى مناطق معينة أخرى كانت البيوت تبنى من الطمى أو الخيرزان ، فمدينة تنبكت مبنية بطوب قائم الزوايا مصنوع من الطين ، وفى بوريم بين تنبكت وجاو توصل الأهالى إلى انه يمكن عن طريق خلط الطمى بدهن نباتى الحصول على طلاء أكثر قدرة على مقاومة المطر ، وهو طلاء استخدم فى تنبكت أيضا ، ويذكر ابن بطوطة ان لديهم نوعا من التراب يمكن استخدامه بدل الجير بعد خلطه بزيت نباتى ، وقد استخدمه اهل السودان الغربى فى أعمال البناء (٢٧٠)

فضلا عن ذلك كانت المدن فى بلاد السودان الغربى قد تم تخطيطها بعناية فائقــة وبخاصـــة زمـــن دولتى مالى وسنغاى ، ومثل هذه المدن جاو العاصمة ،

وتنبكت العاصمة الثانية وجنى وماسنه وتندرمه وتكده فضلا عن مدن الهوسا الخاضعة لسنغاى[٢٧١].

فمثلا مدينة جاو العاصمة وصفت زمن الأساكى بكثرة عمرانها وازدياد سكانها عن الفتاش "وقد تجادل بعض سكان كانوا من الهوسا مع بعض سكان جاو ، حول أيهما أكثر سكانا وعمرانا واتساعا ! وتدخل بعض أهل تنبكت فى الجدل فأخذوا ورقة ودواة وقلما ، ودخلوا بلدة كاغ – أى جاو – وابتدأوا من أول بيت بمغربها يدونون القصور ويرقمونها واحدا بعد واحد إلى ثلاثة أيام" وبلغ عدد الدور ٧٦٢٦ دارا "غير بيوت مبنيات بالحشيش" كان هذا العمل الهام فى مطلع أسكوية اسحاق بن داود (تولى ٩٩٦هـ/١٥٨٧م) ، وبمناسبة عطائه الضخم لجميع أهل جاو فى شهر رمضان ، ويعلق صاحب الفتاش بقوله "وحسبك هذا من كرمه وكيف يمكن من تعميم هؤلاء بالعطايا فى شهر واحد إلا بالقوة والعظمة" .

وقد وصف ليو الأفريقى جاو بالرخاء والرواج التجارى وأن بها ذهبا أكثر من حاجة السوق إليه ، ومع ذلك فإن مدينة جنى أهم من جاو تجاريا ، ومدينة تنبكت أهم منها ثقافيا[٢٧١]. (٢٧٢)

وأما تنبكت وتقع شمالى وسط النيجر على بعد ١٢ ميلا من النهر ، فيصفها السعدى – وهى مسقط رأسه ، بأنها "ما دنستها عبادة الأوثان ولا تجد على أديمها قط لغير الرحمن ، مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء الزاهدين"[٢٧٢]. (٢٧٣)

سكانها خليط من السودان وشمالى أفريقية وأهل مصر ، من أوجيلا وفزان وغدامس/وسجلماسة وفاس وسوسى ودرعه..." وهى مركز إسلامى وتجارى ، ومبانيها بالحجر وبعضها بالخشب ، وبها مصانع لنسيج القطن والكتان ، ومنها نحو ٢٦ بيتا من بيوت الخياطين المسماة تندى ، ولكل واحد منها شيخ رئيس معلم ، عنده من المتعلمين ٥٠ وعند بعضهم ٧٠ – ١٠٠".

احتفظت تنبكت بازدهارها وأهميتها زمن مالى وسنغاى حتى أن المغاربة حين قضوا على دولة سنغاى جعلوها عاصمة لهم[٢٧٣]. (٢٧٤)

زارها الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقى ت حوالى ٩٦٠هـ/١٥٥٢م) حوالى عام ٩١٨هـ/١٥١٢م أى زمن أسكيا الكبير مؤسس دولة سنغاى.

كذلــك مدينة جنى تعتبر سوقا عظيمة من أسواق المسلمين يصفها السعدى بقوله : "وفيها يلتقى أرباب الملح مـــن معدن تغازه وأرباب الذهب مـــن معدن بيط Bitu ، وكـــثر فـــيها هذان المعدنان ، وراجت تجارتها ، وقصدها الناس من جميع الجهـــات ومـــن تنبكت وما حولها" ويكثر فيها الشعير والأرز والماشية والسمك ، والقطـــن وأهلها يقايضون عليها بالنحاس والأسلحة مثل الخناجر – وهذا بالإضافة إلى أهميتها العلمية الاسلامية.

ومن المدن التى بنيت حديثا زمن سنغاى مدينة تندرمة بنيت عام ٩٠٢هـــ/ ١٤٩٦م زمـــن أسكيا الكبير ، يقال أن أسكيا أخذ من مدينة زاغا نحو ٥٠٠ بناء ، احتفظ لنفسه منهم بنحو ٤٠٠ بناء فى العاصمة جاو . وأعطى الباقى إلى أخيه عمر كمـــزاغو ، وكلفـــه ببـــناء هذه المدينة ، وقيل أن مكانها كان مسكنا لقوم من بنى إســـرائيل حيث لاتزال آبارهم وقبورهم ، وكانوا أثريا يزرعون السلق ويتاجرون فيه. وعرفت المدينة باسم تندرمة ، كما فى رواية صاحب الفتاش – نسبة إلى رجل اســـمه تـــند وزوجته واسمها مَرْمة ، وعموما هذه المدينة من المدن التى استحدثت زمن الأساكى وازدهرت.[٢٧٥]

أمـــا عن الأثاث فى البيت السنغائى ؛ فقد اعتنى أهل سنغاى بتجميل بيوتهم وتزيـــنها بالـــنقوش وتأثيـــثها بالأقمشة المستوردة من المغرب والأندلس . وهو ما نشـــاهده فى الفرش والأغطية المطرزة ، والسجاد والحيطان المزينة ببعض التحف كأنياب الفيلة وبيض النعام وريشه أو آيات قرآنية. أما عند مدخل الباب تعلق حدوة حصان أو رسم كف رجل ، أو وضع خطان من القطران عند المدخل لاتقاء العين وماتـــزال هذه العادات متوارثة إلى يومنا هذا ، على أن التحف والأغطية المطرزة تستورد من المغرب غالبا.[٢٧٦]

الخاتمـة

نخرج من هذه الدراسة بالعديد من الحقائق التالية :

١ - أظهـرت الدراسة أن العائلة السنغائية زمن أسرة الأسكيين ، كانت على بناء مـن التماسـك الأسرى سواء فى القرية أو فى المدينة ، فقد عاشت فى ظل مجموعـة مـن القـبائل مخـتلفة الأجناس والديانات ، إلا أنها كونت لحمة اجتماعية فيما بينها لصالح مجتمعها.

٢- خلصت الدراسة إلى أن المجتمع السنغائى يهيمن عليه نظام الطبقات.

٣- اثبتـت الدراسـة أن الطراز المعمارى فى بناء المنازل وأثاثها وخاصة فى مدينة تنبكت وجنى وجاو وأقدز مغربى السمات.

٤- توصـلت الدراسـة أن العائلـة السـنغائية تتمتع بموروث اجتماعى متنوع الأغراض والمقاصد منه فى فن الغناء والموسيقى وانتشار أسواق لفن القصة الروائى والمضحك.

٥- أفادت الدراسة أن هناك تأثيرا وتأثر بين الفن المغربى الأفريقى وانتقال آلات موسـيقية مغربـية مـثل الغيطة إلى السودان الغربى وانتقال آلة الطبل من السودان الغربى إلى المغرب.

٦- أوضـحت الدراسة ان المرأة السنغائية كانت على درجة من المهارة فى فن الطبخ وانتقال كثير من الوجبات من شمال أفريقيا إلى السودان الغربى مثلما حدث من إدخال وجبة العشاء لدى العائلة السنغائية.

٧- أوضـحت الدراسـة حدوث تزاوج بين كثير من العائلات السنغائية وخاصة نتيجة وفود عناصر مغربية للمنطقة.

٨- كما تأثر الزى لدى العائلة بزى شمال أفريقيا.

٩- خلصـت الدراسـة إلى أن كثيراً من العادات المتفشية فى المجتمع السنغائى والـتى لم تمت إلى الإسلام بصلة ومنها نظام الوراثة والانتساب عن طريق الأمومـة وسـيادة المرأة ، فأصبح مواطنو سنغاى ينتسبون إلى آبائهم دون أمهاتهم ، وأصبح للرجل دوره الفعال فى المجتمع دون أن تفقد المرأة مكانتها التى منحها إياها الإسلام.

والخلاصة أننا نلمس بما لايدع مجالا للشك أن عادات وتقاليد العائلة السنغائية كانت مطبوعة بطابعين اثنين أحدهما محلى متوارث لم يستطع الدين الحنيف أن يطمس معالمه فبقيت فيه ملامح جاهلية ، وآخر إسلامى فرض نفسه على مستوى العقيدة والعبادات وإن لم يتغلغل فى الأحوال الشخصية والمعاملات.

ويبدو أن خلط السودانيين مابين الإسلام والمعتقدات الوثنية إنما يجد مبرره فى قوة اعتقادهم فى السحر وعالم الأرواح ، وتعاطى المجتمع السودانى للسحر يشكل أحد السمات البارزة فى تاريخه والتى كثيرا ما وقف عندها أصحاب مصادرنا ، يبدو أن الشهادات المصدرية اكتفت برصد الظاهرة دون محاولة اطلاعنا على مضمونها مما يجعل الدارس عاجزا عن سبر أغوارها.